٤

سلسلة رجل المهام الصعبة

الهروب المثير



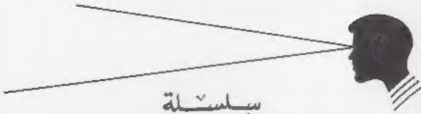
الهروب المثير

دار الجيل

للطبع والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً: دارجيلاب - تلكس: ٢٣٤٣٠ دار الجيل



سلسلة

رجل المهام الصعبة

المغامرة الرابعة

الهروب المثير

تأليف : مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩١

رجل العمليات الخاصة :

انها سلسلة جديدة حافلة بالاثارة والمغامرة نقدّمها لك أيها القارئ العربي الكريم..

ففي ظل عالم بات يعتمد كثيراً على أجهزة مخابراته ووسائلها السرية لتحقيق أهدافه.. وفي ظل ما يسمى بحرب المخابرات السرية.. وفي ظل أقصى درجة من المهارة والذكاء يبرز اسم « ماجد شريف ».. فهو طراز جديد فريد لا مثيل له في عالم المخابرات..

واذا كان « جيمس بوند » هو اسطورة الغرب في دنيا المخابرات.. فإن « ماجد شريف » هو الأسطورة القادمة من الشرق.. من الوطن العربي الكبير..

فهو الرجل الذي لا يقهر.. والذي يدخره رؤساؤه للحظة الأخيرة.. حيث لا يكون هناك حل آخر غير « ماجد شريف »..

ولم يحدث أن خيّب « ماجد » أمل رؤسائه فيه أبداً..

بسم الله الرحمن الرحيم

« في الأسر »

احاط رجال المخابرات الروسية «K.G.B» « بماجد » من كل جانب وقد صوّبوا مسدّساتهم نحوه وظهرت في عيونهم نظرة قاسية أشدّ برودة وصلابة من الجليد السميك تحت أقدامهم. وعلى مسافة قدم واحدة ارتمى « ماكس » المزيّف ضابط المخابرات الروسي مصاباً بطلق ناري، عندما اطلق زملاؤه الرصاص على « ماجد » ليحاولوا منعه من الفرار، فأصابت رصاصتهم زميلهم الذي حاول خداع « ماجد » على أنه « ماكس » والذي سافر « ماجد » من القاهرة إلى « موسكو » ليحصل منه على ميكروفيلم هام جداً، يصوّر موانئ الأعداء البحرية وخطوط ملاحة غواصاته وملاجئه البحرية السرية، وغيرها مما يتعلّق بقوّته البحرية(١).

وكان من ضمن شروط « ماكس » ألا يسلّم « ماجد » الميكروفيلم قبل أن يقوم « ماجد » بتهريبه من « موسكو »، والتي

(١) اقرأ بداية هذه المغامرة في قصة : « المهمة المستحيلة ».

كانت تطارده فيها ثلاثة أجهزة مخابرات.. الأمريكية والروسية ومخابرات الأعداء التي سرق منها « ماكس » الميكروفيلم وحاول بيعه إلى السفارة المصرية في « موسكو »، وهناك صار أشبه بفأر في المصيدة بعد أن سُرق منه جواز سفره، فلم يستطع مغادرة « موسكو » ولذلك سافر « ماجد » إلى هناك لمساعدته في الخروج من روسيا.

وقامت المخابرات الروسية بخدعة ماكرة، فقد بدّلت « ماكس » الحقيقي بآخر مزيّف لخداع « ماجد »، وتظاهر رجال المخابرات الروسية بمطاردتهما في أكثر من مكان، واكتشف « ماجد » خلال تلك الفترة حقيقة ضابط المخابرات الروسي المزيّف فأخفاها.. وفي القطار المتّجه من « موسكو » إلى « لينينجراد » حاول « ماكس » المزيّف القبض على « ماجد »، ولكن « ماجد » قفز معه خارج القطار المليء بالضباط الروس.. واصيب الضابط الروسي برصاصة من زملائه، وكان آخر ما نطق به اسم راقصة الباليه الروسية الأولى « ايفانا بافلوفتش » عندما سأله « ماجد » عن مكان ومصير « ماكس » الحقيقي الذي قبضت عليه السلطات الروسية.

تبادل بعض الضباط الواقفين الحديث بلهجة غاضبة باللغة الروسية التي كان « ماجد » يجهلها، ووضح في نبرة أصواتهم أن غضبهم كان بسبب موت زميلهم، والذي لا بد وأنه ضابط برتبة كبيرة وإلا ما طرفت عيون زملائه لموته خوفاً من المسؤولية والمساءلة..

فإن وفاة ضابط مخابرات في احدى العمليات هو أمر لا يثير مثل هذا اللغط والغضب، إلا إذا كان ضابطاً برتبة كبيرة.

تقدّم أحد الضباط من « ماجد » وتفرّس فيه بعيون ضيّقة متجهّمة، وتذكّره « ماجد » على الفور، فقد كان نفس الضابط الذي أوقفه و « ماكس » المزيّف أمام الأوبرا وحاول تفتيشهما.. الضابط ذو العينين الزرقاوين كموج البحر!

لوح الضابط « لماجد » لينهض فأطاعه في صمت.. وتقدّم الضابط منه وأجرى تفتيشاً له واستولى على مسدّس « ماجد » ووضعه في جيب معطفه.

وأخرج الضابط من جيبه الآخر قيوداً حديدية وضعها حول يدي « ماجد » وأغلقها، واستسلم له « ماجد » بهدوء فقد كان يعلم تمام العلم أن أي محاولة للمقاومة سيكون نتيجتها طلقات ما يزيد عن ثلاثين مسدّساً مصوّبة إليه، وأنه ليس أحب للواقفين حوله من قتله وتحويل جسده إلى مصفاة من ثقوب الرصاص انتقاماً لزميلهم القتيل.

وحلّقت طائرة هليكوبتر كبيرة فوق المكان، ثم هبطت على مسافة من ضباط المخابرات وأسيرهم، فهتف الضابط في « ماجد » بخشونة بالانجليزية : هيا أيها الثعلب.. اصعد إلى الطائرة..

تقدّم « ماجد » من الطائرة وصعد داخلها وخلفه عشرة من رجال

المخابرات على الأقل، وساد الصمت جوف الطائرة العمودية وقد عاودت التحليق وانطلقت إلى جهة مجهولة، وأخفى رجال «K.G.B» مسدّساتهم في ستراتهم وإن ظلت اصابعهم قابضة على زنادها في جيوبهم، وعيونهم القاسية مصوبة إلى « ماجد » بنظرات حادة قاسية لا تطرف لها رموشهم.

وجّهت الطائرة وجهتها نحو « موسكو » عائدة، وعرف « ماجد » أنه سيساق إلى أحد أماكن المخابرات الروسية حيث سيجرى استجوابه.. أما مصيره فكان معروفاً ومؤكّداً ولا يزيد عن احتمالين، إما النفي إلى « سيبريا » ليقضي بقية عمره وسط الجليد يشق الأنفاق لأنابيب الغاز والبترول.. وإما القتل والتصفية بعد محاكمة سريعة من المؤكد ادانته فيها.

فلم تكن المخابرات الروسية لتأخذها شفقة أو رحمة بعميل أجنبي قُبض عليه يمارس نشاطاً معادياً فوق أرضها، خاصة إذا تسبّب هذا العميل في قتل أحد ضباطهم، وهناك مثل روسي شهير بأنه عندما يقع أحد الجواسيس الأجانب في قبضة المخابرات الروسية، فمن المؤكد أن عيناً أخرى لن تقع عليه بعد تلك اللحظة!

كان « ماجد » يدرك كل هذه الحقائق، ولكن ذرة في قلبه لم يساورها الخوف أو القلق، فهو لا يخشى الخطر أياً كان مصدره.. سواء كان خلف الستار الحديدي أم في أي مكان آخر في العالم، وعندما يمتهن أحد الرجال هذا العمل، فهو يدرك أنه يحمل روحه

بين يديه ويقامر بها في أي مكان يذهب إليه لأداء مهمة ما.

ولم يكن « ماجد » ممن يدركهم الخوف أو القلق حتى في أسوأ الظروف..

وسرعان ما استعاد « ماجد » روحه المرحة الساخرة، والتفت باسماً إلى ضابط المخابرات ذي العينين الزرقاوين قائلاً: يبدو أن هناك حفلة معدة لاستقبالي.

وجاوبه الضابط بلطمة قاسية من كعب مسدسه فوق جبهة « ماجد »، فسال خيط رفيع من الدماء فوق حافة جبهته ومسح « ماجد » الدم بيديه المقيدتين وأكمل نفس الابتسامة. حسناً لقد تم قص شريط الافتتاح الأحمر!

ضاقت عينا الضابط أكثر وقال بلهجة باردة: سوف تعض أطرافك ندماً وقهراً على اليوم الذي فكرت به في دخول هذه البلاد

وبنفس الروح الساخرة أجابه ماجد: إنك تسيء الظن بي أيها الرفيق، فإن متعة رؤيتي لك وحديثي معك تجعلني أتغاضى عن أي تفاهة أخرى!

حدّق الضابط في « ماجد » بصمت وقسوة وشيء من الدهشة، كان قد قرأ الملف الخاص « بماجد » والذي يقول إنه أخطر رجل مخابرات في مصر والشرق الأوسط، وإنه أحد رجال المخابرات القلائل الأفذاذ في العالم.. ولكنه لم يكن يعرف كيف يمكن لرجل

ولو كان من أفضل رجال المخابرات في العالم أن يواجه موقفا يائسا مثل تلك السحرية والاملاءات

قال «ممدوح» وهو يواصل سخريته: دعك من هذه النحنحة أيها الصديق، إن صاحب الوجه الباسم له تحية!

رد الضابط بعد برهة: سوف نجعلك تنسى ابتسامتك الأبدية أيها الرفيق، ومن ثم سيكون مصيرك جهنم بكل تأكيد!

رد «ممدوح» بسخرية أشد: سيكون هذا أمرًا مؤسفًا حقًا؛ لأنني سأضطر إلى تحمل صحبتكم هناك بكل تأكيد!

عض الضابط على شفته غيظًا وقهرًا، ومضى، ولو كانت الأوامر الصادرة له قد أطلقت له حرية معاملة ذلك الرجل الساخر لكان قد أذاقه من صنوف العذاب ما لم يحتمله قط، ولكن الأوامر كانت محددة في القبض عليه حيًا، ولا شك أن هناك مصيرًا أسوأ ينتظره بكل تأكيد.

انحرف الضابط بعينيه عن «ممدوح»، وتشاغل بالتطلع من نافذة الطائرة العمودية، وحلقت الطائرة فوق أحد الحصون العتيقة التي كستها الثلوج وأحاطها من الخارج صف من الأسوار الحديدية العالية، وصف آخر من الأشجار الضخمة التي تمثل أفضل ستار وحماية للمكان، ولم يكن هناك أثر لمستولين بالقرب من الحصن مما يقطع بأن المرور في ذلك المكان كان ممنوعًا لأهميته، وكان هناك

عشرات من أصحاب المعاطف الثقيلة وبدت العتمة حول المبنى قد دسوا أيديهم في جيوبهم المنتفخة. وأدرك «ماجد» أن ذلك المبنى لا شك يتبع المخابرات الروسية في «موسكو». عندما ألقى إليه نظرة سريعة من نافذة صغيرة وشرعت الطائرة في الهبوط حتى حطت فوق سطح المبنى وتوقفت مراوحها عن الدوران وسكنت عن الحركة.

أشار قائده «ماجد» بمسدسه نحو باب الطائرة فغادرها يحيط به رجال المخابرات المسلحون، برغم قيوده التي كانت تشلّه وتمنعه من أي مقاومة، وكان يستحيل عليه الخلاص منهم.

واستقبلتهم مجموعة أخرى من الرجال ذوي الوجوه الباردة المتجهّمة والياقات العالية..

وتسلمت المجموعة الثانية «ماجد» وسارت به إلى سلم ضيق يهبط إلى قلب المبنى ذي الحوائط الحجرية الباردة، والذي كان مظهره يقطع بأن عمره لا يقل عن مائة عام.

وانتهى بهم المسير إلى حجرة واسعة خفيفة الإضاءة. وأشار أحد الضباط لـ«ماجد» أن يجلس فوق أحد المقاعد فأطاعه في صمت، ودخل ضابط قبالة «ماجد»، فقال وهو يدعك معصميه بمكر شديد: هذا تقدّم جيّد.

رد الضابط ساخرًا: الآن لن تتمكّن من الفرار على أي حال

وأعدك بأنه عندما تخرج من هنا لن يكون بك عضو واحد سليم.

رد ماجد: هذا أمر مؤسف حقاً، فكيف سيمكنني عندئذ أن أوقع على دفتر الزيارة هنا وأسجل شكري على حسن ضيافتكم؟

أجابه الضابط ساخراً: سيكون من دواعي سرور الحانوتي الذي سيتولى دفنك أن يسجل توقيعك عوضاً عنك!

وانصرف الضابط خارجاً وقد غدا وجهه لينقبض أشدّ مما كان، فتبعه بقية رجاله وتركوا «ماجد» وحده في الحجرة المتسعة.

ولم يكن «ماجد» ليشك بأن هناك أكثر من كاميرا تلفزيونية تقوم بتصويره وبعكف عشرات الرجال على مراقبته وتسجيل كل حركاته. أما أي محاولة للهرب فلن تقابل إلا بطلقة رصاص لن تخطئ هدفها، أو دفعة غاز سام تقضي عليه في الحال!

وكان من المحال على الإنسان أن يفكر في الهرب من ذلك المكان، الذي يبدو كما لو كان قلعة تحيطها عشرات الأسوار ويكمن الموت داخل كل شبر فيها. وقدّر «ماجد» أن أفضل ما يفعله هو الانتظار، ولا شيء آخر.

فجأة انطفأ النور القليل في الحجرة وسادت الظلمة، وبعدها بثانية ظهر ضوء ساطع باهر قويّ سُلّط نحو وجه «ماجد» من السقف، فحمى «ماجد» عينيه بيديه من الضوء القوي، وبعد

حطمت أزرار يديه وبدأ يعتاد الضوء الباهر المسلّط نحوه

كانت تلك إحدى وسائل المخابرات في إجهاد أي شخص يخوض استجوابه، وكان من السهل على « ماجد » أن يغادر مقعده ويتخلص من ذلك الضوء المزعج و ..

وقبل أن يتحرّك قيد أنملة أحاطت بمعصميه قيدان حديديان ظهرا فجأة من مسند المقعد الذي كان يجلس فوقه لتمنعاه من الحركة

وكان على « ماجد » الانتظار والصبر.. إنه على الأقل لم يفاجأ وكان أكثر ما يضايقه في تلك اللحظة، ليس كونه مقيّداً أو معرّضاً لضوء مزعج باهر أو مصير مجهول، بل فشل ما جاء لأجله، فقد تمكّنت المخابرات الروسية من خداع جمجوم والقبض على « ماكس »، وربما الحصول على الميكروفيلم منه، وكان هذا أسوأ ما في الأمر كله

وفجأة تعالى ضجيج قوي، أصوات متنافرة عالية صاخبة تصب كلّها في أذنيه كأنّما سُلّطت عليها عشرات الميكروفونات. أصوات كأنّها خليط من الصرخات الحيوانية وصرير عجلات القطار واندفاع الطائرات لأسرع من الصوت، كأنها تعبر خلف أذنيه بدويّ هائل رهيب

أدرك « ماجد » أنهم يريدون تحطيمه وشل مقاومته وإنهاك قواه

قبل استجوابه. وكان عليه أن يتماسك ويبدو قوياً برغم كل الظروف.

وأغمض عينيه من الضوء الباهر يقتحمهما كأنه يراه بعيون مفتوحة، وكانت الأصوات الهادرة تدوي في أذنيه كأنها تنسفه وتكاد تصيبه بالصمم.

وكان عليه أن يستخدم أنجح الوسائل في التحرر من تلك المحسوسات المادية حتى لا تؤثر على حواسه وإدراكه فتصيبه بالانهيار.

وببطء حاول أن يصفو بذهنه، أن يسمو به إلى عالم آخر وبهدوء شرع عقله في التحرر، وبدأت حواسه تعود إلى صفائها، وتدريجياً لم يعد الضوء القوي يؤذي عينيه كأنما لا وجود له، ولم تعد الأصوات الهادرة المتفجرة تصل إلى مسامعه كأنها تلاشت من حوله.

استرخى « ماجد » فوق مقعده وهو يمارس « اليوجا » . إنها الشيء الوحيد القادر على انتزاعه من كل تلك المعاناة والمحسوسات المؤلمة حوله.

وكانت هناك أسئلة معلقة لا تزال شائكة، ترى ماذا حدث لـ « روس ماكس » الحقيقي، وهل استولوا منه على الميكروفيلم، وهل لا يزال حياً أم أنهم تخلصوا منه بطريقة ما. وما هي علاقة راقصة



لباييه « يفان بافلوفتش » بالأمر، ولماذا تعلق ضابط مخابرات الروسي باسمها قبل وفاته، وهل تعلم الـ «RGB» تورّطها في الأمر بصورة ما؟

وما شك الأسئلة كلها أن تلاشت من ذهنه الذي غاب في عالم آخر وشمل روحه هدوء وصفاء عجيبين كأنه يسبح في بركة مياه تحيطها الورود والأزهار فوق ربوة عشبية أو كأنه يحلق بجناحيه فوق العالم كله في استرخاء ودغدغة لذيذين.

ومر الوقت.. وانفتح باب الحجرة فجأة بصوت مسموع، ففتح « ماجد » عينيه وقد استعاد وعيه في نفس اللحظة

وفي مدخل الباب ظهر الجنرال « بوشكو » الرجل الدموي الرهيب في جهاز المخابرات الروسي!

وكان « ماجد » يعرفه حق المعرفة فقد اطّلع على صورته قبل مغادرة القاهرة، وكان يعرف أن ذلك الرجل من أكثر رجال المخابرات في العالم قسوة وبراعة، وأنه لا يؤمن بشيء في حياته اسمه الفشل، وأن أقل هفوة من رجاله يكون مصيرها الموت المؤكد، حتى أن كافة أجهزة المخابرات في العالم تطلق عليه « الجنرال الدموي » وتخشاه وتحسب له ألف حساب

ولم يكن « ماجد » يظن أنه يمكن أن يحظى باهتمام رجل مثل « ماشكو »، وعندما رآه في مدخل محجرة أدرك متأخراً أن تلك العملية التي أقحم نفسه فيها في تلك البلاد تعني أشياء هامة جداً للروس، أكثر مما قدر لها، وأن مصيره لم يعد يحتمل أي شك!

* * *

« الجنرال الدموي »

خفت الضوء الباهر القوي حين فتحت ضلفة الباب ، وخفق صرير الأبواب الثقيلة لحظة فظهر الجنرال « مشيكو » في مدخل الحجرة

تقدم الجنرال من « ماجد » وهو يتفرس فيه في هدوء وبطء، شأن الوحش المفترس يوشك أن ينهش فريسته حالاً بعد أن أمن من وقوعها بين مخالبه واستحالة نجاتها!

كان الجنرال ضخم الجثة ، جسمه قوي ذو وجه عريض مستدير، وصلعة تامة الاستدارة تكشف عنها حين خلع القبعة المصنوعة من فرو الثعلب ووضعها فوق المكتب ، وكانت نظرة عينيه الضيقتين تلمعان كأنهما دوّامة رهيبة لا قرار لها ، لا يجرؤ إنسان على الدنوّ منها أو الغوص في أعماقها.

وظهرت دهشة حقيقية في عيني الجنرال الناعستين عندما استقبله « ماجد » قائلاً :

من المؤسف يا سيدي أني لا أستطيع النهوض للترحيب بك ... فالمرء لا يقابل الجنرال «ماشكو» كل يوم فهذا شرف عظيم

حبست الدهشة أنفاسه من وجه الرجل المدوي الذي توقع أن يجد «محمد» منهار مشتت الأحاسيس، وسرعان ما تمالك نفسه وقال بصوت عميق أجوف :

لا يدهشني رؤيتك للمرحة ... وربما كان هذا هو السبب في رغبتي لإلقاء نظرة عليك.

— إني سعيد الحظ أيها الجنرال لأحظى بهذا الشرف سوف أذكر ذلك بسرور دائماً في مستقبل أيامي

— لن تتمتع كثيراً بمستقبل أيامك فمن يروني لا يعيشون طويلاً لينعموا بهذه المتعة!

وضغط الجنرال فوق زر صغير في ظهر مقعد «محمد» فتحررت يداه من قيودهما، وجذب الجنرال مقعداً وجلس أمام «محمد» وأشعل سيجاراً كوبياً فاخراً أخذ منه نفساً عميقاً وقال وهو يتصنع إلى الحائط ببصره: إني مندهش كيف اكتشفت حقيقة «كوبيل» «سيرجي»؟

— إذن فقد كان «ماكس» المزيف كولوسلا. إن هذا يدل على شدة اهتمامكم باستقبالي، وإن دهشتي لتزداد عندما

أعلم أن كولومبيا بجهازكم يمكن أن يحصل مثل تلك الأخطاء التافهة إن هذا يدل على أن جهازكم بحاجة إلى اعادة تقييم

اكتسى العضب وجه الجنرال، فلم يكن سهلاً على الرجل الحصير بجهاز عظيم القوة كالمخابرات الروسية أن يسمع نقداً بمثل تلك الصورة، وسرعان ما تلاشى الغضب لتحل محله قسوة طاغية، وقال الجنرال ببطء:

حسناً هذا شقي الوفيو «سيرجي» جزاءه ولن نذكر في ملفه إلا كل ما هو جيّد.

ماجد: ما يدهشني يا سيدي هو اهتمام رجل كثير الانشغال مثلك بأمر تافه كالذي جئت لأجله.

— لن تندهش إذا علمت أن هذا الميكروفيلم شديد الأهمية بالنسبة لنا وربما تزيد أهميته لدى الغرب عن حاجتكم إليه.

— لست أفهم يا سيدي.. ما علاقتكم أنتم بالأمر كله هل لأن الأحداث تجري فوق أرضكم؟

هذا هو أول الأسباب. وهذه هي المرة الأولى التي تجري فيها مثل تلك اللعبة فوق أرضنا أنت ولا شك تعلم يا سيد «ماجد» أن دائماً نلعب على غير أرضنا ولم يحدث

أن يجرؤ أحد على الدنوّ من أسوارنا، ولكن هذه المرة تغيّرت قواعد اللعبة مما استتبع تدخّلنا بكل ثقلنا. إننا لا نسمح بأن يجري شيء من وراء ظهرنا وهذا هو شعارنا دائماً. فنحن لسنا على استعداد للتخلي عن قوتنا وصدارتنا في هذا العالم، ولذلك ترانا نتصرّف بحسم وقوة في هذه المسألة، أما السبب الآخر فهو أن هذا الميكروفيلم الصغير يمثّل أهمية فائقة بالنسبة لنا. إن صراعنا مع الأمريكيين معروف للجميع وخاصة حرب المخابرات الخفية.. وقد جاء هذا الميكروفيلم إلينا ضائعاً في الوقت المناسب. فقد كنا بحاجة إلى ورقة رابحة في مفاوضاتنا القادمة مع الأمريكان حتى يتخلّوا عن أحلامهم الرامية لجعل الفضاء مستعمرة لهم في خطة «حرب النجوم» التي يزمعون إقامتها في الفضاء

تساءل «ماجد» بحيرة حقيقية. لست أفهم أيها الجنرال العلاقة بين حرب النجوم وذلك الميكروفيلم.

رد الجنرال وهو ينفث دخان سيجاره الضخم. أنت تعلم أن أعداءكم متحالفون مع الأمريكيين وهذا التحالف يشمل كل الفروع العسكرية. ومن جهتنا فنحن نعلم تماماً أن كافة غواصات أعدائكم وملاحتهم الحربية تمت بمساعدة الأمريكان وبواسطة تكنولوجيتهم وخبرائهم ومعدّاتهم. وأن

كل ما يحفظه له عدوكم إنما يتم بتعاون وتنسيق مع
القوة العسكرية الأمريكية. وبذلك فإن كشف هذه الخطط
والقوة البحرية لأعدائكم إنما يعني بالتالي كشف الخطط
البحرية الأمريكية، لأن الاستراتيجية واحدة في الحالتين.

ظهرت الدهشة على وجه «ماجد» وقال: إذن فهذا هو سر
اهتمامكم بالمسألة كلها.. فقد أردتم الحصول على
المعلومات حتى تكشفوا أسرار القوة العسكرية البحرية
للأمريكيين وما حدث فيها من تطوّر وتقدّم.

— بالضبط. وهذا سيدفعهم إلى تغيير ملاحتهم البحرية، وخطوط
بحار غواصاتهم السرية في المحيطات وأعالي البحار
وعمل مثل هذا ولا بد سوف يكلفهم كثيرًا لأكبر حد.

أكمل ماجد: وبذلك فإنهم سيتخلون حتمًا عن برنامج «حرب
الكواكب» ويؤجّلونه إلى ما بعد تغيير خرائطهم البحرية
لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بالعملين في وقت واحد.

— تمامًا.. إنه نفس الهدف الذي نسعى إليه بمحاولتنا حتى
لا تصبح الضربة الصائبة تتجه إلى قوة أعدائكم.

ماجد: تدهشني معرفتكم بهذا الأمر يا سيدي.. ولا أظن أن أكثر
من شخصين أو ثلاثة في جهاز مخابراتنا يعلمون بهذا الأمر
وإني لأتعجب كيف تسرّب الخبر إليكم؟

ظهرت ابتسامة فوق وجه الدائري لأول مرة وقال:

ليست كل معلوماتنا نحصل عليها من مصدر مباشر. إننا أيضاً نحلل ونستنتج ونتحرك على هذا الأساس فإن جهازنا عالي القدرة.

ومضت فترة صمت... كان «ماجد» يتجاهل عمداً الجنرال الروسي من مواجهته، وكشف هدفه به، وضاقت عيناه في ريبة وهو يتساءل:

لا أظن أنك جئت هنا أيها الجنرال لتحريري عن أهمية الميكروفيلم بالنسبة لكم.

ـ لا طبعاً... إن هناك أسباباً عديدة دفعتني لزيارتك، من ضمنها رغبة في التعرف على ذلك الشاب المصري الذي هزم جهاز المخابرات الأمريكي في أكثر من مواجهة سابقة، وكذلك مخابرات أعدائكم. إننا نقدر البطولة وخاصة الذين يحاربون أعداءنا. يمكننا أن نعتبرهم أصدقاءنا.

تجاهل «ماجد» ما يلمح إليه الجنرال وقال متسائلاً: وبقية الأسباب؟

ـ لقد مات ذلك الرجل المدعو «ماكس»!

نطق الجنرال الروسي بالكلمات وتراجع فوق مقعده وهو يحدق في وجه «ماجد» ليرى تأثير كلماته عليه.

تساءل «ماجد» بشك: هل هي خدعة أخرى أيها الجنرال؟

— وما حاجتنا إلى مزيد من الخداع وأنت في قبضتنا.. بوسعي اطلاعك على جثة الرجل. ولكنك لن تستطيع التأكد أبدا لأنك لم تر وجهه من قبل. لقد ابتلع الرجل حبة « سيانيد » كانت مخفاة في ملابسه عندما حاولنا استجوابه عن مكان الميكروفيلم.

— والميكروفيلم أين هو؟

— لقد ذهب السر مع الرجل. وفشلنا في معرفة مكان الميكروفيلم منه عند استجوابه.

قطب « ماجد » جبهته وهو يقول: لست أشك في طبيعة استجوابكم له. ولا بد أن الرجل فضّل الموت على التعرّض إلى هذا الاستجواب!

— لسنا نعرف سوى وسيلة واحدة للاستجواب.. ونحن نستخدمها في كل مرة. وإذا كان هذا الغبي قد انتحر وأطبق فمه على السر للأبد، فإن هذا لا يعني أن الميكروفيلم قد ضاع. وإلا ما كنت أنت لا تزال حياً حتى الآن!

ارتسمت ابتسامة ساخرة فوق شفتي « ماجد » وقال: إذاً فأنتم تطمعون أن أقودكم إلى مكان الميكروفيلم. يا للسخرية وكيف سأقودكم إلى مكانه وقد تسببتم في موت الرجل

الوحيد في هذا العالم الذي كان يستطيع أن يدلني على مكانه؟

— ربما كان في أقوال وتعهدات رئيسك ما يقودك إلى مكان الميكروفيلم حتى بدون مساعدة من « ماكس »

هز « ماجد » بالرد فقاطعه الجنرال بإشارة من يده وقال بلهجة باردة :
انا على استعداد لأن نبحث حيث مقابل معرفة مكان الميكروفيلم . سوف نؤمن لك مغادرة البلاد في هدوء إذا ما أرشدتنا إلى مكانه إن عميلا أجنبيا لم يحظ بهذا الكرم منا من قبل.

ماجد يا له من كرم أنظن أنني لو كنت أعرف مكان الميكروفيلم كنت سأضيع الوقت مع ذلك الكولونيل الغبي الذي تظاهر بأنه « ماكس »؟

صاحت عينا الجنرال ورم شفتيه وهو يقول بل ان هذا هو ما يؤكد لنا أنك تعرف مكان الميكروفيلم. وإلا فما الذي دفعك إلى التظاهر بأنك خدعت في شخصية ضابط مخابراتنا إن هذا ليس له سوى تفسير واحد، وهو أنك كنت تعرف مكان الميكروفيلم وبذلك جاريت الكولونيل « سيرجي » في خدعته حتى تتمكن من مغادرة البلاد بواسطته، وهو السبب الذي دفعك قطعاً إلى ركوب القطار المتجه إلى « ستجرد » لتغادر « روسيا » بالميكروفيلم.

وساد الصمت لحظات بعد كلمات الجنرال الروسي، وعمل ذهن «ماجد» بسرعة البرق. لقد فسّر الروس تصرّفه تفسيراً آخر، فهو قد تظاهر بالبلاهة خدعة الضابط الروسي عليه حتى تمكّن بواسطته من معرفة مكان «ماكس»، وتظن المخابرات الروسية أنه فعل ذلك لأنه يعرف مكان الميكروفيلم، وأنه واثق من الحصول عليه في النهاية، ولعلهم يظنونه معه بالفعل. لقد أرسل إليه القدر ورقة رابحة ليلعب عليها، وربما تكون فيها نجاته. إن مكان الفيلم لا يزال مجهولاً لم يعثر عليه أحد حتى الآن، وربما يتمكن هو من الحصول عليه. فقط إذا تمكّن من مغادرة ذلك المكان حياً!

بدد هدوء الحجرة صوت الجنرال وهو يقول: لا أحب الذين يفكرون كثيراً قبل أن يجيبوا على اسئلتي

ماجد: ليس لديّ الاجابة التي تريدها أيها الجنرال، إن ما يخص بلادي على هذا الميكروفيلم فلن يحصل عليه أحد آخر

رمق الجنرال «ماجد» بنظرة قاسية وقال: يبدو أنك تجهل وسائلنا في انتزاع ما نريد من معلومات

لست أجهلها يا سيدي، ومن المؤكد أني أفضّل أن ألقى نفس ما فعله «ماكس».

جزّ الجنرال على أسنانه بصوت له صرير وقال بغضب مكتوم ومن قال لك إننا سنسمح لك بالموت، إنه راحة من [illegible]

أنا سوف أذيقك من العذاب ما يجعلك تصرخ ذهولاً ورحمة … سوف تستمرئ في النهاية ولكن بعد أن أذيقك ألوان … وبعد أن تنتزع منك مكان الميكروفيلم إن لك ظروف رائعة في ذلك وهي لا تقل أبدًا في شرع ما نريد في النهاية.

ونهض وهو يحدق في وجه «أحمد»، وقبض أصابعه في غضب هادر، وهو يقول: سوف تعرف بعد قليل معنى تسمية «… …» وأرجو أن تعجبك برامجي الخاصة التي أصنعها للمستمتعين من أمثالك لإقناعهم بالتعاون معي

وعلى الفور اندفع إلى الحجرة أربعة عمالقة أشداء انقضوا على «أحمد» وحملوه حملاً خارج الحجرة، وعلى الفور «أحمد» أسرع … فقد تحجبت حقيقته ودفع الخطر إلى أن تأكد من أنه يعرف مكان الميكروفيلم، وكان هذا معناه بقاءه حيًا على الأقل حتى يستطيع معرفة ذلك المكان بأي وسيلة. ورغم أنه كان يعلم تمام العلم أنه سيلاقي خلال تلك الأيام من العذاب ما لا مثيل له في حياته فقد … خلال ذلك الشيء الذي أطلق عليه الخطر اسم «البرنامج»!

« البرنامج »

وكان البرنامج حافلاً..

وبدأ الجميع بدئه في تو.. فقد حمل العمالقة الأربعة « ماجد » إلى زنزانة صغيرة أسفل المبنى كان يؤدي إليها سرداب ضيق أكلته الرطوبة.. وكانت جدران الزنزانة حجرية صماء بها باب من الصلب يفتح إليكترونياً من الخارج ويستحيل فتحه من الداخل

وقيد العمالقة الأربعة ذراعي وقدميّ « ماجد » في أربعة قيود في الحائط مثبتة إلى حجر دوار ضخم، بعد أن خلعوا ملابسه إلى ما يستره، وعندما حاول المقاومة انقضّ أحد العمالقة عليه وكانت له عضلات هائلة فشلّ حركة « ماجد »، وانقضّ آخر بلكمة ساحقة إلى بطن « ماجد » فأحسّ كأنما أصابت معدته طلقة مدفع وترنّح « ماجد » من شدّة الضربة فعاجله العملاق الثالث بلكمة مباشرة في وجهه ارتجّت بها رأس « ماجد »، وأحسّ كأن أنفه قد تحطّم وهكذا لم تكن له أي مقاومة وهم يقيّدونه إلى الحائط في حجر دائري ضخم يبرز من الحائط ويدور حول محوره في بطء

واندفع العمالقة الأربعة يصوّبون لكماتهم إلى بطن « ماجد » وصدره ووجهه، كأنما هم ملاكمون في حلقة تدريب، و « ماجد » هو كيس الرمل الذي يتدرّبون عليه في وحشية.. وراحت لكماتهم تصيب كل جزء في جسده مع دوران الحجر الدائري.

لم يتأوّه « ماجد » ولم يصرخ شأن الكثيرين ممّن يتعرّضون للبرنامج.. فبعد اللكمة الرابعة أو الخامسة تخدّرت أعضاؤه وصار يحسّ باللكمات والضربات كأنها تصيب الجدران خلفه.. وتورّمت جبهته وعيناه وسالت الدماء من أنفه.. ولكنه مع ذلك لم تصدر منه أنّة ألم..

وتوقّف العمالقة الأربعة عن الضرب بعد دقائق يلتقطون انفاسهم.. وظهر الجنرال في مدخل الزنزانة الضيّقة.. وأشار برأسه فعاد العمالقة يكملون عملهم.

وكاد « ماجد » يفقد وعيه من الألم.. وعلى الفور أحضر أحد الرجال الأربعة قنينة كبيرة فتح فوهتها وصبّها فوق جسد « ماجد ».. وأحسّ « ماجد » كأن النار قد اندلعت في جسده، فقد كان ما صبّه الرجل فوق جروحه كحول مركّز أشعل جروحه بالنار.

وجزّ « ماجد » على أسنانه من شدّة الألم، ولكنه برغم ذلك لم يُطلق صرخة واحدة.

ونهدده في الحرمان « ناشكو » . إن الفرصة لا تزال سانحة أمامك.

ووصلت كلمات رجل المخابرات الروسي إلى « ماجد » مشوّشة كأنها تأتي من بعيد وسط غمامات من الضباب. واستجمع « ماجد » قوته ليقول: لن تحصل مني على شيء!

ألقى الجنرال سيجاره في غضب وداس عليه بقدمه فسحقه، وهتف في رجاله الأربعة: فلتأخذوه إلى « حجرة الموسيقى » ليكمل البرنامج.

تقدم الرجال الأربعة نحو « ماجد » فحلوا قيوده، ولم تكن لـ« ماجد » قدرة على السير فحمله الرجال الأربعة فوق أكتافهم، وأسرعوا به عبر ممرات إلى زنزانة أخرى وألقوه فيها وغادروها بعد أن أوصدوا بابها الألكتروني خلفهم.

وكانت الزنزانة شبه متشابهة للأولى غير أنه لم تكن بها قيود إلى حائط، وكانت هناك كاميرا للمراقبة في السقف تتبع مراقبة السجين أينما اتجه في الزنزانة الضيقة.

ولم تكن لـ« ماجد » قدرة على الوقوف، ولكنه رغم ذلك كان لا يزال متماسكاً، وعليه فقد كان يعلم أن البرنامج لم ينته، وأن هذه ليست سوى البداية، وأن ما أطلق عليه الجنرال « ناشكو » « حجرة الموسيقى » لا بد وأنها تحمل صنفاً آخر من التعذيب.

ولم تكد تمر ثوان قليلة حتى تأكد « ماجد » من ظنه.. فقد بدأت المياه تتدفق في الزنزانة.. وكانت هناك فتحات صغيرة بأركان الحجرة تدفقت المياه منها وراحت تعلو بسرعة حتى قاربت أن تغطي كتفي « ماجد ».

وهتف « ماجد » هادراً: أيها القساة.. إنكم حتى لو أغرقتموني هنا فلن تنتزعوا مني كلمة واحدة.

وجاء صوت الجنرال « باتشكو » من ميكروفون صغير بأعلى الزنزانة قاسياً ساخراً وهو يقول: إن الغرق نعمة لن تحصل عليها.

وتوقفت المياه عندما وصلت إلى مستوى عنق « ماجد ».. ثم بدأت الموسيقى تصدح.. واندهش « ماجد » فلم يكن يعرف حتى تلك اللحظة ماذا ينوون أن يفعلوا به.

وجاءته الإجابة سريعاً.. فمن مكان ما انطلق تيار كهربائي داخل الماء.. وأحس « ماجد » بارتجافة جسده في الماء المكهرب والأرضية المكهربة أسفل قدميه، فشرع يقفز فوق الأرضية بقدميه العاريتين على حين كانت الموسيقى تصدح حوله لتتناسب مع قفزاته وحركات قدميه!

وجز « ماجد » على نواجذه من شدة الألم.. لقد عرف ما هي « حجرة الموسيقى ».. وها هو يرقص على أنغامها من شدة الألم!

راح «ماجد» يقفز ويقفز وقد ارتعش جسده واتّقدت عيناه فصارتا بلون الدم. ولم يكن هناك أي منجىً أو مفرّ. كان الماء مكهرباً ولكن بقدر محسوب حتى لا يصعقه. كانوا يريدون إضعاف مقاومته حتى يدفعوه إلى الاستسلام أو الاعتراف. ولو كان هناك شخص آخر يتعرّض لما تعرّض له هو لأستسلم في الحال واعترف بما يريدون. ولكن بأي شيء يعترف لهم. وحتى لو كان لديه ما يعترف به أيظنونه سيعترف لهم ولو أرسلوه إلى الجحيم وليس إلى موسيقاهم المكهربة؟ وبعد قرابة ساعة توقّف سريان الكهرباء في الماء. وشرع منسوب الماء يهبط ببطء في الزنزانة. وجاء صوت الجنرال «ماشكو» وهو يقول: إن لك مقدرة هائلة على الاحتمال أيها الشاب. ولا شك أن الدارسين في معهد المخابرات سيستفيدون من الفيلم الذي التقطناه لك كنموذج رائع لقدرة الجسد البشري على احتمال الألم. إن آخر العملاء الذين تمتّعوا بموسيقانا انهار بعد عشر دقائق.

تهالك «ماجد» فوق الأرض.. كانت جراحه تؤلمه بشدّة، وكان يحسّ أن جلده ملتهب من الكحول فوق جروحه وبسبب الكهرباء. وكان الألم في أنفه فظيعاً من لكمة عملاق. وكان يشعر كأن النار قد اندلعت داخل عينيه. وتمنّى لو أنه أغمض عينيه قليلاً وتمدّد في استرخاء في مكانه. وبالفعل فقد وعيه بعد ثوانٍ قليلة

« المخابرات الأمريكية »

عندما فتح « ماجد » عينيه كان ذهنه مختلطاً مشوّشاً.. كانت ثمة ذكرى بعيدة عن شيء ما يسمّى « البرنامج » وعن حجرة الموسيقى.. وكان ثمة احساس فظيع بالألم لا يزال ناشباً اظافره في وعيه واحساسه الداخلي.

أخيراً استردّ وعيه واستوعبت عيناه الأشياء حوله. كان راقداً في فراش نظيف مغطّى بملاءة بيضاء حتى منتصف صدره، وقد انحنى رجل في معطف أبيض يعطيه حقنة في ذراعه، على حين وقفت فتاة رقيقة الملامح برداء ناصع البياض أمام عربة صغيرة متحرّكة امتلأت بالمقصّات والشاش الأبيض والقطن والمطهّرات

وكانت هناك سلة صغيرة إلى يسار الفراش قد امتلأت بالشاش الملوث بالدماء والقطن المستعمل. راقب « ماجد » الطبيب بصمت، والتفت نحوه الطبيب ببشاشة قائلاً : لقد استعدت وعيك أخيراً.

إن لك بنية قوية جداً ساعدتك على تجاوزك مرحلة الخطر
وستساعدك حقنة المورفين على تحمّل آلام جروحك

رد ماجد: إن لكم برنامجاً حافلاً وحجرة موسيقية كفيلة بإرسال
فيل إلى الجحيم!

ضوى الطبيب أدواته داخل حقيبته متجاهلاً حديث «ماجد»
وهو يقول: لست أدري عما تتحدّث أيها الرفيق. ومن الأفضل
أن تدخر قواك لأنك بحاجة إليها.

تمتم ماجد: معك حق... إن باقي البرنامج ولا شك ينتظرني

رمق الطبيب «ماجد» لحظة ثم قال له: سآتي في العاشرة مساء
لأعتني على جروحك وعضلك حقنة مخدّرة حتى تستطيع
تحمّل آلامك والنوم في هدوء.

وعندما بأف مغادرة الحجرة فتح بابها وظهر بمدخلها الجنرال
«باشكو» بسحنته الكريهة، وعلى الفور غادر الطبيب و ممرضته
الحجرة التي وقف على بابها أربعة حراس يحملون مسدساتهم
بأيديهم بدخولها وقد تأهبوا بشدة للتدخل في أي لحظة

وارتسمت ابتسامة واسعة فوق شفتي الجنرال وهو يقول
قد استيقظت وعيت أخيراً.. إني سعيد لأراك في تمام صحة

قال «ماجد» ساخراً: إني أتعجب لأجل كل هذه العناية الفائقة،

ولا أظن أن برنامجكم يتضمن أي نوع من الرعاية للطبقة

— إننا نتحدث جداً أيها الرفيق ولن نمكث هنا طويلاً فما أن نسترد جزءاً من قوتك حتى نستردك مرة أخرى

— لا بد أن هناك حفلات موسيقية عديدة تنتظرني على أحر من الجمر لتستمعي موسيقاها الرائعة

— إن لك روحاً مرحة أيها الرفيق . ومن المؤسف أن الموقف لا يحتملها، ولا أنا أيضاً!

قطب « ماجد » حاجبيه ساخراً وهو يقول . ترى هذا جدّ في الأمر . هل هناك من ينافسنا في خطف « الجنرال الدموي »، دعني أقل إن هذا المغرور وقعه يرتفع دعوته

قال الجنرال ببطء : لقد وصلت معلومات مؤكَّدَة بأن الأمريكان على وشك الوصول إلى مكان الميكروفيلم . أما كيف ومتى فهذا ما لا نعرفه.

— هذا مؤسف حقاً . ترى أنتِ التي أرسلت حمامة زاجل إليهم لأخبرهم بمكان الميكروفيلم؟

ظهرت القسوة الشديدة في عيني الجنرال « متشكو » وهتف بصوت به غضب كظيم : قبل أن تعبث من اللهجة الساخرة..

إن أشياء كثيرة تتوقف على قدرة الأمريكان في الوصول إلى الميكروفيلم قبلنا.

ماجد: أتقصد أن تقول إن بقاءك في منصبك يتوقف على هذا الأمر؟

ارتعشت أهداب الجنرال الروسي فأدرك «ماجد» أنه أصاب الهدف في الصميم.

وعاد «ماجد» يقول: إذن فأنا الورقة الأخيرة في أيديكم للوصول إلى الميكروفيلم قبل المخابرات الأمريكية. يا إلهي. لم أكن أظن أنني بمثل هذه الأهمية. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعلكم تأتون بي إلى المستشفى للعلاج

قال الجنرال بلهجة رقيقة: إنني أعتذر عما حدث أيها الرفيق. لقد تبدّلت الأمور تماماً.. إنني أعدك الآن أن أمنحك ما تشاء. حريتك والملايين. وجواز سفر بأي جنسية لأي دولة في العالم لتعيش فيها إلى الأبد بعيداً عن كل خطر. إنني أؤمن لك المستقبل تماماً.

أكمل ماجد: والثمن هو الميكروفيلم. أليس كذلك؟

سحق الجنرال سيجارة الفحم بقدمه وهو يقول: نعم

وبعيون ضيّقة شديدة القسوة تساءل: ما هو ردك؟

سادت لحظة من الصمت. وكان على « ماجد » استغلال الفرصة التي أتيحت له بلا انتظار.

ألقى « ماجد » ببصره نحو نافذة الحجرة ذات القضبان الحديدية السميكة وهو يقول: اعطني فرصة للتفكير

نهض الحران وهو يقول: أمامك فرصة حتى صباح الغد. إنني لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك

وتقدّم الحران نحو الباب فقال ماجد: إنك بحاجة إلى اثبات حسن النية على الأقل

أمسك الحران بمقبض الباب وهو يقول: سآتيك صباح الغد بدفتر حساب باسمك في بنك سويسرا بمبلغ عشرة ملايين دولار. وستقلك طائرة خاصة إلى أي مكان في العالم بأي جواز سفر وجنسية تريدها، ولا يمكنني أن أقدّم لك أكثر من ذلك. كما أنني لا أستطيع أن أسمح لك شيئاً من هذا قبل أن تعطيني الميكروفيلم

وغادر الحران الحجرة . وأغمض « ماجد » عينيه. لقد ضاقت الفرصة الممنوحة له . وذلك الحران يظن أنه يعرف مكان الميكروفيلم.. وكان عليه أن يتصرّف ويحاول أن يغادر المستشفى بأي ثمن قبل الصباح وإلا فسينكشف أمره

غادر « ماجد » فراشه واقترب من النافذة الحديدية. كان يدرك



أن هناك عيناً خفية ترقبه وهو يكن يريد أن يبدو بمظهر من يفكر في الفرار.

وتظاهر بأنه يمد يديه بلا قصد نحو النافذة وتأكد مما ظنه عندما سرى في أصابعه تيار كهربي صاعق.. كانت النافذة مكهربة.. وكان يوجد خارج الباب أربعة حراس على استعداد لإطلاق الرصاص عند أول محاولة للفرار وفوق ذلك كله كانت حركاته كلها مرصودة بعيون خفية لا يراها ولكنه كان موقناً من وجودها

استدار « ماجد » فاصطدم بصره بمرآة صغيرة معلقة فوق الجدار. وهاله ما شاهده في وجهه، كان وجهه مليئاً بالجروح والخدوش وحيده متورماً وكان هناك جرح كبير في جبهته قد غطى بالشاش وسقط بصره نحو ساعديه، كانا يبدوان كما لو كانا محترقين وقد امتلئا بالخدوش.

على الرغم في قلب « ماجد » كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها لمثل هذا التعذيب ونصيبه لجروح والإصابات بمثل تلك الصورة.

وكان في موقف لا يتيح له التفكير في أي رد إذ أبلغ رد يوجهه للجهاز السموي هو أن ينجح في الهروب من ذلك المكان ومعه الميكروفيلم ويعود به إلى بلاده

ولكن كيف وقد مات السر مع « ماكس » أيمكن أن يكون لا يزال هناك أمل لدى « ابانا بافلوفتش »؟

وتنهّد « ماجد » كانت تلك كلها أشياء سابقة لأوانها وللتفكير فيها وعليه أن ينجح في الهرب من المستشفى أولاً، وبعد ذلك ليكن ما يكون.

تمدّد « ماجد » في فراشه واطفأ النور وحل الظلام بالحجرة كان هذا يتيح له الهرب من عيون مراقبيه وأخذ يتفحّص سقف الحجرة وأركانها العليا محاولاً برغم الظلام تحديد مكان العين التليفزيونية التي تراقبه. ووجد أن أنسب مكان لها لكشف الحجرة بالكامل هو الركن الأيسر بجوار الباب

وبالفعل نهض واقترب بحذر وبأيدي خبيرة مدربة استطاع الوصول إلى العين التليفزيونية بأعلى ركن الباب، وأمسك « ماجد » بقطعة لاصق صغيرة من اللاصق الذي يغطي جبهته ونزعها ثم لصقها فوق العين التليفزيونية وأضاء النور وهو آمن مطمئن إلى أن مراقبيه لن يشاهدوا إضاءة النور أو أي شيء آخر، وستتكفّل قطعة اللاصق بمنحهم ظلاماً مستمراً فيظنونه نائماً وأن ضوء الحجرة لا يزال مطفأً

وكانت بقية خطة « ماجد » بسيطة فما أن يدخل الطبيب إلى الحجرة لاعطائه الحقنة المخدّرة حتى يباغته بضربة تفقده وعيه، ثم يرتدي ملابس الطبيب ويخرج بها، وكانت المشكلة هي

الممرضة، وكان عليه التصرّف معها قبل أن تحاول الصراخ أو الاستنجاد بالحراس الأربعة المسلّحين الواقفين بباب الحجرة

تمدّد « ماجد » فوق فراشه قلقاً ومرّ الوقت بطيء قاتل وأحسّ باقتراب أقدام من الحجرة وقفز إلى جوار بابها واختبأ في خفة.

« فتح الباب وظهرت الممرضة وهي تدفع عربة الأدوات الطبية، وعلى الفور امتدّت يد « ماجد » لتلتصق فوق فمها، وفوجئت الممرضة بالحركة وجحظت عيناها من المفاجأة ولم تتح لها يد « ماجد » أي قدرة على الصراخ أو الاستنجاد، وعندما خطا الطبيب داخل الحجرة امتدّت يد « ماجد » الطليقة لتغلق الباب بسرعة.. ثم انطلقت في لكمة ساحقة نحو بطن الطبيب وانحنى الطبيب لشدّة الضربة وقد جحظت عيناه من الألم وبدا كأنهما ستقفزان من محجريهما. وعاجل « ماجد » الطبيب بلكمة أخرى مدّدت الطبيب فوق الأرض بلا حراك.

وهمس « ماجد » بصوت مُهدد في أذن الممرضة بالانجليزية اذا ما حاولت الصراخ أو الاستنجاد فسوف أقتلك

وأزاح يده ببطء من فوق فم الممرضة وقد أمسك بمشرط طبي التقطه من عربتها وقرّبه من وجهها مهدّداً فلمح شبح ابتسامة فوق وجه الممرضة وقالت بصوت هامس بالانجليزية انك بارع حقاً، كنت أنوي أن أساعدك لتغادر هذا المكان.

وجالت منها نظرة نحو العدسة التليفزيونية التي غطاها «ماجد» باللاصق وقالت بإعجاب شديد: يا لك من ماهر. كنت سأقترح عليك نفس الخطة.

حملق «ماجد» في الممرضة بدهشة وهو يقول: من أنت؟

ردت الممرضة بسرعة: ليس هذا وقت الأسئلة. هيا بنا فإن هناك سيارة تنتظرنا على مقربة.

ابتلع «ماجد» دهشته، ولم يكن هناك وقت للأسئلة، وأسرع يخلع ملابس الطبيب ويرتديها. ونزع الضمادة من فوق جبهته وأخرجت الممرضة من جيبها بودرة بيضاء راحت تنثرها بمهارة فوق جبهة «ماجد» ووجنتيه فاختفت جروحه وظهر وجهه خاليًا منها. ثم أخذت من عربة الأدوات الطبية الحقنة المخدِّرة وحقنت بها الطبيب الغائب عن الوعي وهي تقول: إن هذا كفيل بأن يتركه نائماً حتى الصباح.

وحمل الاثنان الطبيب ومدّداه فوق الفراش وغطّياه بالملاءة البيضاء.. واقتربت الممرضة من الباب وهي تقول لماجد هامسة: اتبعني وحاول ألا تجعل الحرس يشكون.

أومأ «ماجد» برأسه في صمت. وفتحت الممرضة الباب وهي تدفع عربة الأدوات الطبية أمامها و«ماجد» خلفها، وقد اندفع

خارجاً بسرعة ووجهه منكّس للأرض لكي لا يتيح للحراس الأربعة التمعّن فيه.

ومر الاثنان في الممر بدون أن يعترضهما أحد. وتوقفا أمام باب المصعد، وضغطت الممرضة فوق زر باب المصعد، وعلى البعد ظهر بعض الأطباء والممرضين قادمين. وأحسّ «ماجد» بالقلق الشديد لو شاهده الأطباء والممرضون يشكون في أمره واكتشفوا أنه ليس زميلاً لهم.

وانفتح باب المصعد في اللحظة الأخيرة فاندفع «ماجد» والممرضة داخله، وضغط «ماجد» زر غلق المصعد وتنفس في راحة عندما بدأ المصعد هبوطه.

وهمس «ماجد» للممرضة: كيف سنخرج من البوابة الرئيسية؟ لا بد أن هناك حراسة قوية وسوف يشكّون بي حتماً.

ردّت الممرضة بثقة: إن كل شيء مرتّب فلا تقلق

وتوجّهت الممرضة وخلفها «ماجد» إلى مبنى صغير في مدخله عدة سيارات إسعاف. وتبادلت الممرضة مع أحد السائقين حديثاً بالروسية فأومأ السائق برأسه بسرعة وأسرع إلى سيارته وأدارها.

وعرف «ماجد» على الفور خطة الممرضة: أن يخرج معه داخل سيارة إسعاف كأنهما ذاهبان لإحضار أحد المصابين

على الفور قفز « ماجد » والممرضة داخل السيارة من الخلف، وعبرت السيارة بوابة المستشفى بلا مشاكل، ثم انحدرت إلى الطريق بسرعة.

والتفت « ماجد » إلى الممرضة متسائلاً : ألن تخبريني من أنت وما هو هدفك من مساعدتي للهروب من المستشفى.

لم ترد الممرضة، وأخرجت من جيب معطفها مسدّساً صوّبته إلى « ماجد » وهي تقول . إذا حاولت القيام بأي مقاومة فلن أتردد في إطلاق الرصاص عليك فوراً. إن لدي أوامر بذلك من رؤسائي.

صاح عبثاً « ماجد » وهو يتأمّل مسدّسها الصغير من طراز « ريج سوبر ب ٢٣٠ » وقال باسماً هذا مسدّس يفضّل رجال المخابرات الأمريكية استعماله لصغر حجمه وسهولة استعماله ومداه المؤثّر أليس كذلك كنت أتساءل متى سيظهر رجال الـ (CIA) في الصورة؟

لم تعلق الفتاة وظلّت مصوّبة مسدّسها الى « ماجد » وعيناها لا تطرفان وتوقّفت سيارة الاسعاف، فقد كانت هناك سيارة معطّلة تسدّ الطريق، واقترب سائق السيارة المعطّلة من سائق سيارة الاسعاف وهو يحاول الاعتذار له وبطلقة من مسدّس كاتم للصوت من الرجل تمدّد السائق بلا حياة فوق مقعد السيارة.

وظهر ثلاثة رجال مسلحون من سيارة أخرى كانت واقفة على مسافة قريبة فأحاطوا بسيارة الإسعاف شاهرين مسدساتهم نحو « ماجد »..

وعرف أنه صار في قبضة المخابرات الأمريكية هذه المرة!

° ° °

« صراع ثلاثي »

غادر « ماجد » سيارة الإسعاف إلى السيارة الثانية والمسدّسات الأربعة مصوّبة إليه، وأحاط به اثنان من المسلّحين في المقعد الخلفي على حين جلست الفتاة الممرّضة في المقعد الأمامي بجوار السائق وأخفت مسدّسها داخل سترتها. وانطلقت بهما السيارة إلى وجهة مجهولة.

قال « ماجد » للفتاة: إذن فقد استطعتم اختراق صفوف السوفيات
هذا مؤثر. إن زرع ممرضة تابعة للمخابرات الأمريكية في
مستشفى تابع للمخابرات الروسية في « موسكو » هو مسألة
لا تقل صعوبة عن الهبوط فوق القمر، ويبدو أنني محظوظ
لأتمتّع بخدمتكم واهتمامكم على هذا النحو

راقبته الفتاة بصمت ولم تنطق.

وعاد « ماجد » يقول: إنني لا أفهم سر تصرّفكم هذه المرة
بمكنا أن نغدر الروس فهم كانوا بحاجة إليّ. ولكن ما

هي حاجتكم لي، فحسب ما عرفت فقد اقتربتم كثيراً من الميكروفيلم.

قالت الفتاة ساخرة: هذا صحيح. بوجودك معنا فقد اقتربنا كثيراً من استعادته.

تساءل « ماجد » بعيون ضيّقة: [illegible] فقد كانت تلك المعلومات التي سرّبتموها إلى الروس عن قرب حصولكم على الميكروفيلم مجرّد خدعة.

— ها قد بدأ عقلك يتفتح. كان ذلك من أجل ارباكهم حتى يتسنّى لنا تهريبك ولذلك يمكنك أن تقول أننا صرنا قريبين جداً من معرفة مكان الميكروفيلم.. بحصولنا عليك!

هتف ماجد: مرحى مرحى. إنكم لا تقلّون براعة عن أصدقائنا الروس. إن اللعب عالي التكنيك هذه المرة

وتأمل الطريق الذي راحت السيارة تقطعه، ولاحظ وجود سيارة بالخلف تتبعهم وقد أطفأت كشافاتها فأدرك « ماجد » أنها تابعة للمخابرات الأمريكية أو لمخابرات الأعداء الذين لا بد وأنهم يتعاونون مع الأمريكيين بطريقة ما في تلك القضية، والتفت إلى الفتاة قائلاً:

إننا نتجه خارج « موسكو » أليس كذلك. ويبدو أن هناك بعض الأصدقاء يتبعونا منذ وقت.

صوّب الشخص الجالس إلى اليمين مسدّسه في وجه « ماجد »

بلهجة تهديدية وعيون عاصبة محذّرة بدون أن ينطق فقال « ماجد » لمفتاة : أتستأجرون خرساً ليقود مهامكم. من المؤكد أن شخصاً
مثل صاحبنا هذا لو شاهد الجمرة الموسيقية وحل ضيفاً على أصدقائنا الروس لأنطقوه بألف لغة، حتى لو كانت القطة قد أكلت لسانه من قبل!

هتف الرجل بصوت متحجّر : لماذا لا تكفّ عن الصخب وتغلق فمك الثرثار؟

رد ماجد : اذن فإن القطة لم تأكل لسانك. هذا حسن.. وماذا أفعل إذا كففت عن الحديث؟

— تضع لسانك في فمك وإلا فسي سأصبح عصبياً جداً، وأنا عندما أصير عصبياً فلا يمكنني التنبؤ بما سأفعله في تلك اللحظة

— أنا أيضاً أصبح عصبياً عندما أكف عن الحديث. وهكذا ترى أننا نحن الاثنين في موقف صعب، اذ يتعيّن عليّ أن أتحدّث، ويتحتّم عليك أن تستمع، فهكذا تفترض الأصول، حيث أنني في ضيافتكم!

ظهر الغضب في عيني الرجل، ورفع مسدّسه بحنق ليهوي به فوق رأس « ماجد »..

وهنا لا بد أن نقول إنه أخطأ بذلك خطأً كبيراً . وأن « ماجد » قد استدرجه بسذاجة ليفعل ما يريد بالضبط!

فقبل أن تهبط يد الرجل الممسكة بالمسدّس فوق رأس « ماجد » كانت يد « ماجد » أسبق، فأمسك بمعصم الرجل بيده اليمنى، وبنفس اللحظة فتح باب السيارة ليدفع الجالس على يساره خارج السيارة بدفعة قوية من قدمه.

تم ذلك كله بسرعة بالغة لم تستغرق غير ثانية واحدة . وقبل أن تتمكّن الفتاة الجالسة في المقعد الأمامي من اخراج مسدّسها انطلقت رصاصة من مسدّس الرجل الجالس على يمين « ماجد » والذي أمسك « ماجد » بمعصمه وضغط عليه بشدّة، فأصابت الرصاصة جبهة الفتاة فانكفأت على وجهها ميتة. وانحرف السائق بسيارته بشدّة فوق الجليد، وبضربة سيف يد أسقط « ماجد » المسدّس من يد الجالس على يمينه، وبقبضته وجّه إليه لكمة ساحقة، وفي أقل من ثانية كان الرجل يتدحرج فوق الجليد ساقطاً من السيارة وخلفه زميلته القتيلة

التقط « ماجد » المسدّس ووجّهه إلى السائق قائلاً بصوت بارد يحمل كل الوعيد : استمر في الانطلاق وانحرف في أول طريق فرعي.

انطلق السائق بالسيارة في صمت وقد ظهرت ملامحه فزعة في

مرآة السيارة الداخلية. وراقب « ماجد » السيارة القادمة من الخلف يشاهدها على مسافة. ودوت طلقة مكتومة منها أصابت جدار السيارة في الخارج مما دلّ على أن ركاب السيارة الثانية عرفوا ما حدث لرفاقهم داخل السيارة الأولى. وعرف « ماجد » أن ركابها ينتمون لمخابرات الأعداء والتي سرقت منها « ماكس » الميكروفيلم.

قال « ماجد » لنفسه: لا أظن أن هؤلاء يحبون من يزعجهم ويوقفهم من أحلامهم بطلقات الرصاص، خاصة إذا كانت من مسدسات كاتمة للصوت. هيا أيها الصديق فسنحرف في الطريق القادم فقد بدأت أمل هذه اللعبة، هذا بالإضافة إلى أن شهيتي قد انفتحت للقتال والعراك.

انحرف السائق بالسيارة في الطريق الضيّق إلى اليسار وبدأ تحجبه الأشجار الكثيفة وانطلق عن الطريق الرئيسي. وصفعت يد « ماجد » بمؤخرة المسدس فوق رأس السائق فانكفأ فوق عجلة القيادة، وفي لحظة احتل « ماجد » مكانه وألقاه خارجاً. واستعدّ لمواجهة القادمة. اقتربت السيارة الثانية وانحرفت في الطريق الفرعي وقد أضاءت أنوار كشافاتها، وما أن لمح قائدها السيارة المعطلة إلى ركن الطريق حتى أوقف سيارته بصوت حاد، واندفع من السيارة ثلاثة رجال وهم يصوّبون مسدساتهم ويسبّون ويشتمون، وأسرعوا نحو السيارة الأخرى فوجدوها فارغة لا أحد بها.

تطلّع الرجال الثلاثة حولهم وقد شملهم غضب شديد، وهتف

أحدهم حانقاً: هذا الثعلب المصري.. أين اختفى؟

وجاءه تساؤل من الخلف: أتبحث عني أيها الصديق؟

واستدار الرجال الثلاثة في لحظة واحدة، وهي نفسها اللحظة التي انطلقت فيها ثلاث رصاصات متتابعة من المسدّس الصغير «ربع سوبر» في أقل من ثانيتين، وانكفأ الرجال الثلاثة فوق الجليد كأجولة الملح وقد أصابتهم الرصاصات في مقتل.

تأمّل «ماجد» مسدّسه بإعجاب وقال: إنهم يجيدون اختيار أسلحتهم حقاً، ولا بد أنه سيزداد إعجابهم بمسدّسهم عندما يتّصل بهم الحانوتي لدفن هؤلاء الأغبياء الثلاثة.

واتّجه إلى السيارة الأولى وأدار محرّكها، وشرع يشقّ الطريق بها عائداً إلى «موسكو».

« ايفانا بافلوفتش »

لم يكن من عادة « ايفانا بافلوفتش » الاستيقاظ مبكراً. وهو أمر قد يبدو شاذاً وغير مألوف بالنسبة لأي شخص يعش في « روسيا »، فالاستيقاظ المبكّر والاتجاه إلى العمل في مواعيد محدّدة مضبوطة هو أمر مقدّس بالنسبة للشعب الروسي.

ولكن « ايفانا بافلوفتش » كانت شأنها شأن الطبقة الراقية في طول البلاد وعرضها لا تتقيّد بمثل ما يتقيّد به العامة

وهكذا فتحت عينيها بعد الظهر بقليل وكعادتها بعد استيقاظها أخذت حماماً بارداً برغم برودة الجو الشديدة، ثم أسرعت في أداء بعض التمارين لمدة ساعتين حتى اصابها الاجهاد الشديد. وكان حماماً بارداً آخر كفيل بانعاشها.

وقرابة العصر تناولت (افطارها).. واسترخت للقراءة مدة ساعتين ومع أول هبوط الليل كانت ترتدي ملابسها وتستقل سيارتها الخاصة إلى مسرح البولشوي..

وأسعدها تلك الليلة التصفيق المتواصل الذي استمرّ أكثر من المألوف بدقيقة ونصف بعد انتهاء عرضها اليومي

وقادت السيارة عائدة إلى بيتها في منتصف الليل وهي تحس بالإجهاد وكثير من التوتّر والقلق وأعصاب الطائرة ومشاهدو الفرقة لم يكن أكثرهم فطنة وتدقيقاً ليعطي « إيفانا دموفتش » أكثر من اثنين وثلاثين سنة عمراً. ولكن التجاعيد التي أظهرها التعب والإجهاد حول وجهها وزوايا عينيها أظهرت بوضوح أنها تخطو نحو الأربعين من عمرها على الأقل..

ولم تلبث سعادتها التي أحسّت بها وهي تقف لتتلقّى تحية الجمهور مع زملائها أن تبدّدت وحل محلّها شعور بالانقباض والضيق من كل شيء..

كانت حياتها كلها تمضي على وتيرة واحدة بلا تغيير. ورغم الكثير من الامتيازات التي كانت تتمتّع بها هي ونجوم الفرقة من سكن فاخر وسيارة وسفر إلى كل بلاد العالم ومزايا عديدة داخل بلدها، إلا أن شعورها لم يتبدّد أبداً..

بالضبط كانت تشعر أنها ترس ضئيل في آلة ضخمة دوارة هائلة، وأنها سواء استمرّت تؤدّي عملها أو طواها النسيان أو حتى ماتت فجأة فوق فراشها، فإن هذا لم يكن ليغيّر شيئاً أبداً حولها . وسوف يذهب الجمهور ليصفّق للنجمة التالية التي ستحلّ محلّها في الفرقة.

ولهذا فانها لم تتزوج أبداً. وكأنها كانت تخشى من الانجاب حتى لا يعاني ابنها أو ابنتها نفس ما عانته. وتحطّمت كل قصص حبها بسبب ذلك الخوف الكامن في أعماقها من شيء مجهول قديم.

وتحدّدت مخاوفها وأحزانها وآلامها وانشقت مرة واحدة عندما أخبرها مدير الفرقة أن أوبرا جديدة ستعرض بعد أسابيع قليلة. وأنها لن تكون النجمة في تلك الأوبرا.. وكان هذا يعني أنها لن تسافر مع الفرقة في الرحلة القادمة الى أوروبا بعد اسبوعين، وأن النجمة الجديدة المنتظرة صغيرة السن ستحل محلّها.

كانت تتوقع ذلك منذ شهور بعيدة. فانها لم تعد تؤدّي العروض برشاقتها وبراعتها السابقة التي بدأ يعرض أحكامه عليها والفرقة بحاجة إلى تجديد. وهي لا تستطيع أن تقف في وجه التطوّر والزمن.

مسحت دموعها وهي تقود سيارتها في الطريق لتجتاز الحاجز من البشر والسيارات في ذلك الوقت المتأخر من الليل. ومضت أيام حياتها السابقة مثل شريط سينمائي أمام عينيها. يوم دخلت مدرسة الباليه وهي طفلة. يوم انضمّت إلى معهد الباليه العالي في موسكو. يوم انضمّت إلى فرقة «البولشوي» أعظم فرق الباليه في العالم. يوم صارت نجمة الفرقة الأولى المتحدة. المال. الشهرة. السفر. الامتيازات. النجاح. التصفيق الهادر. وها هي تسعى نحو الهاوية. فالقمة لا يستقرّ أحد عليها طويلاً.. خاصة في مهنتها. أوقفت سيارتها أمام باب منزلها. هبطت منها ببطء..

فتحت باب منزلها ودخلت تعيش وحده منذ أعوام طويلة

واصابت بنوبة الرجفة . واستلقت فوق أقرب مقعد وأخفت وجهها بكفّيها وأجهشت في بكاء شديد. واستمرّت تبكي لحظات طويلة

وقطع نشيجها صوت هادئ يقول يُمكنني تقديم يد المساعدة يا سيدتي؟

رفعت « ايمان » عينيها بدهشة فشاهدته أمامها . طويلاً ذا أكتاف عريضة وشعر أسود فحم وعينين عسليتين واسعتين شديدتي العمق والحادية. وكان بوجهه ندوب وخدوش عديدة ولكنها لم تقلل من وسامته بل زادته وسامة

وتساءلت « ايمان ناقوفتش » ذاهلة وقد كفّت عن البكاء : من أنت؟

جلس « ماجد » أمامها ونظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول : إني واثق أنك تعرفين تماماً من أكون!

٥ ٥ ٥

« ماضي.. وحب.. وجاسوسية! »

قالت « يمانا » داهلة يا الهي. أهو أنت.. هذا مستحيل كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

قال « ماجد » في بساطة يبدو أنك لم تتوقعي رؤيتي إن هناك مثلاً شائعاً في بلادنا يقول إن من يسأل لا يضل طريقه!

عضت « يمانا » على شفتيها قائلة منذ أن احتضى « روجيه » أدركت أنك أنت أيضاً ستختفي إلى الأبد

رفع « ماجد » حاجبيه قائلاً: إذن فإن اسم « ماكس » الحقيقي هو « روجيه ». هذا تقدّم لا بأس به. ولكني لا أعرف حتى الآن ما هي العلاقة بينكما.

مضت لحظات من الصمت، ونطقت « ايمانا » أخيراً فقالت والدموع تبلّل عينيها: إنه أخي!

حدّق « ماجد » في الفتاة بدهشة وقال غير مصدّق أخوك ولكنه

قاطعته بمرارة قائلة : انه أخي من أمي . فقد أنجبته أمي في احدى مستشفيات « المانيا »، وعندما قامت الحرب الثانية وأعلن « هتلر » الحرب على « روسيا » هربت أمي من « المانيا » تاركة أخي « روجيه » الصغير هناك واستقرّت على الحدود الروسية ولم تتمكّن من استعادة « روجيه » ثانية، ثم تزوّجت من جندي ألماني عند اندفاع جيش هتلر الى البلاد في بداية الحرب وكنت أنا ثمرة هذا الزواج من أب الماني

ماجد وبعد ذلك؟

— ماتت أمي.. أو بالأدق اختفت ولم يعرف لها أحد مكاناً وكان هذا شأن أغلب الروسيات ممن تزوّجن بالجنود الألمان فقد كانت أوامر « ستالين » هي التخلّص منهنّ في سرية وصمت..

ماجد ولا أظن أن أحداً هنا يعرف هذه الحقيقة.. حقيقة مولدك؟

— لقد اخفت أمي حقيقة مولدي ولم يعرف أحد أن والدي جندي الماني في جيش « هتلر » والا لكان مستقبلي قد تحطّم تماماً هنا . وبعد اختفاء أمي تبنّتني أسرة روسية صغيرة لم يكن لها أبناء، وهكذا حملت اسمها واكتسبت الجنسية الروسية بعد أن اختفى التاريخ الحقيقي لمولدي واختفى هذا السر إلى الأبد.. لولا..

وعضّت شفتيها ندماً على خطئها.. وسقط قناع ماجد لولا الكولونيل « سيرجي ».. « ماكس المزيّف » أليس كذلك؟

قالت ذاهلة : اذن فأنت تعرف؟

— ليس بالضبط.. إنني أفضّل أن أستمع إلى القصة كاملة منك

بان التردد على وجه « إيفا » ولكنها حسمت رأيها بعد لحظات، وظهر الإرهاق الشديد عليها وتصاعدت الغضون فوق وجهها وهي تقول . كان الكولونيل « سيرجي » يحبّني بجنون وأراد أن يتزوّجني ولكني لم ألتفت إليه أبداً أو أبادله عاطفته.

— إنك محقّة في ذلك تماماً يا سيدتي!

— ولكنه لم ييأس وحاول بكل الوسائل الضغط عليّ لأخضع له فرفضت.. وهنا راح ينبش في ماضيّ

ماجد : إنهم جميعاً يفعلون ذلك.. وقد اكتشف الكولونيل « سيرجي » حقيقة مولدك ووالدك الألماني.. أليس كذلك؟

شحب وجه « إيفا » وقالت : نعم.. وما لبثت الأمور أن زادت سوءاً.. فقد كنت على صلة بأخي « روجيه »، وكانت أمي قد نجحت في الاتصال به قبل اختفائها واستطاعت أن تربطنا معاً برسائل سرية تبادلناها حتى بعد اختفاء أمي..

وهكذا لم تنقطع الصلة بأخي طوال هذه السنين وتمكّنت من مقابلته عدة مرات في « أوروبا » عند سفري مع الفرقة، ومنذ أسابيع قليلة وصلتني رسالة من أخي عن طريق صديق يبلغني فيها أنه سيأتي إلى « موسكو » في مهمة سرية وأنه سيقيم في فندق قريب ويطلب مني مقابلته في ميعاد معيّن.

وصمتت لحظة ثم أضافت بوهن: وقد وقعت هذه الرسالة في يد الكولونيل « سيرجي ».

تساءل ماجد: وكيف علمت بمحتواها؟

— لقد أحضرها لي الكولونيل بنفسه كوسيلة للضغط عليّ لأتزوّجه بعد أن هدّدني بكشف أمري إلى السلطات مما كان يعني فقدي لجنسيتي وكافة حقوقي.

— حسناً.. وبعد؟

— استطاع « سيرجي » تعقّب أخي « روجيه » عند وصوله هنا وقام بسرقة جواز سفره ليمنعه من مغادرة « موسكو »

— أتقصدين أن الكولونيل « سيرجي » كان يريد أن يبقي أخاك هنا رهينة حتى تتزوجي منه؟

عضّت « إيفانا » على شفتيها وهي تقول: هذا صحيح.

— ولكن الأمور تطوّرت بسرعة. واختفى « روجيه » أخوك أو قُتل.

تبسّمت عين « ايفانا » بالدموع وقالت بمرارة: ليته ما جاء هنا لقد أبلغ « سيرجي » رؤساءه بكل شيء عن أخي مما تسبب في القبض عليه في النهاية.

وسادت لحظات صمت، وأشعلت « ايفانا » سيجارة راحت تدخّنها ببطء وعيناها شاردتان.

وأفاقت من شرودها على كلمات « ماجد » وهو يقول: ان عدم دهشتك لمجيئي تدل على أنك كنت تعرفيني، لا أقصد معرفة شخصية ولكنك كنت تتوقّعين مجيء شخص يرتبط مجيئه بأخيك « روجيه » ومهمّته الخاصة التي جاء إلى « موسكو » لاتمامها.

— نعم.

— ولا شك أن « روجيه » قد سلّمك شيئاً خاصاً. شيئاً هاماً جداً كأمانة لديك في حال تعرّضه لأي خطر وكان هذا سرّ بينكما.

حدّقت « ايفانا » في « ماجد » قليلاً واضطربت أهدابها وغمغمت: وكيف عرفت. إن أحداً لم يعرف هذا السر أبداً. ولا حتى الكولونيل « سيرجي ».

— أنت محطئة تماماً يا سيدتي كان الكولونيل « سيرجي » أول من عرف أن الميكروفيلم معك ولكنه لم يشأ اخبار رؤسائه حتى لا يعرّضك لمتاعب ولا شك أنه كان ينوي التخلص مني ثم يعود ليحصل منك على الميكروفيلم ويقدّمه لرؤسائه بطريقة لا تُعرّضك للمتاعب ولكنه قتل أثناء المهمّة.. وذكر لي قبل موته اسمك. وكان هذا كافياً لحلّ السر، وعندما فكّرت قليلاً في الأمر استطعت استنتاج قصة حب « سيرجي » لك بسبب معرفته بمكان حجرتك في المسرح ومواعيد حضورك وانصرافك وكل ما يتعلّق بك وهذا ما لا يفعله إلا عاشق ولهان كان هذا واضحاً في البداية، لقد كان مخلصاً لك في حبّه وقد استطاع حمايتك بالفعل

تطلّعت « ايفون » إلى « ماجد » ذاهلة، وقال ماجد ان الكولونيل « سيرجي » لم يكن بالسوء الذي حسبته.. إن الحب يفعل الأعاجيب حتى لرجال المخابرات.. لقد أوقع « سيرجي » بأخيك وأبلغ عنه لأن هذا عمله ولكنه لم يذكر اسمك قط، أو يخبر أحداً أنك أخت « روجيه » أو أنك تملكين الميكروفيلم.

— ولكن كيف استطعت الافلات منهم؟

— هذه قصة يطول شرحها. ولكن حسبك أن تعرفي أنهم

أتحفوني ببرامجهم وأمتعوني بموسيقاهم العذبة وحركاتهم الموسيقية المكهربة!

هتفت « ايفانا » بدهشة : عمّ تتحدّث؟

— ربما أشرح لك يوماً ما. أما الآن فلا وقت لديّ. انني أريد الأمانة التي تركها لك « روجيه »

صاحت عند « ايفانا » وهي تقول : وكيف أعرف ذلك الشخص المطلوب؟

ماجد: ليس لديّ ما أبرهن به على صدق قولي. ويكفي أنني أعرف كل شيء عنك ولم أنطق به إلى من يهمّهم الأمر في هذا البلد.

ومرت لحظات أخرى من الصمت. وأخذت « ايفانا » تذهب وتجيء في الصالة الواسعة المليئة بصورها في ملابس الباليه أثناء عروض الفرقة في كل مسارح العالم. كانت « ايفانا » عصبية ورمقها « ماجد » برهة بصمت وهي تدخّن سيجارتها بشراهة وأصابعها ترتعش، ثم ألقى نظرة إلى ساعته وقال :

ليس لدي وقت كبير يا سيدتي. ان كل رجال الأمن والشرطة في « موسكو » سيبدأون بحثهم على خلال ساعات قلائل بعد أن يكتشفوا هربي من المستشفى

التفتت « ايفانا » إلى « ماجد » واطفأت سيجارتها في مطفأة

دهية وقالت: إنني مستعدّة أن أمنحك الميكروفيلم بشرط واحد

تساءل «ماجد» بعيون ضيّقة: ما هو؟

— أن تأخذني معك من هنا!

تطلّع «ماجد» إليها بدهشة وقال: لست أفهم يا سيدتي. إن مكانك هو هنا وليس في أي مكان آخر. هنا المجد والبريق والشهرة. إن كثيرين يتمنون لو كانوا مكانك.

قالت «بهاء» بمرارة: سيذهب كل ذلك. سيضيع في غمضة عين. سأصير واحدة من ملايين العجائز في هذا البلد ممن لا عمل لهم سوى الحسرة واجترار المرارة. أرجوك. لم يعد لي هنا أي حياة هنا. لقد سئمت من السهر وأتمنّى مغادرة هذه البلاد إلى الأبد وربما يكتشفون حقيقة أبي وأمي ولن يعلم مصيري بعدها إلا الله خاصة إذا عرفوا أنني كنت أخفي الميكروفيلم كل هذه المدة. إنني في خطر داهم هنا وأنت فرصتي الوحيدة لأن أبدأ حياتي مرة أخرى.. في مكان آخر بلا خوف.

وصمتت «بهاء» وسادت لحظات صمت متوترة وأحس «ماجد» بصعوبة الموقف الذي عاد يتجدد مرة أخرى

غمغم ماجد: ولكن.

وفي هدوء أوقف كلماته ما قامت به « إيفا » من عمل، فقد فتحت حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها شيئاً صغيراً في حجم كبسولة الدواء وابتلعته قبل أن يدرك « ماجد » حقيقة ما قامت به.. وارتسمت ابتسامة يائسة فوق شفتيها وقالت

لقد صار الميكروفيلم في جوفي وليس أمامك سوى طريقتين للحصول عليه. إما أن تقوم بإخراجي من هذه البلاد بوسيلة ما وفي جوفي ذلك الشيء الذي تسبّب في موت أخي ولحق بي كل هذه المتاعب، وإما أن تقتلني لتحصل عليه!

صافق عين « ماجد » وهو يقول: ألا تخشين القتل؟

ردت بيأس يتساوى بقائي هنا مع موتي وربما لو كنت أنت تابعاً لأي جهة مخابرات أخرى لكنت أدرك خطورة ما أقامر به، فإن حياة إمرأة مسكينة وحيدة لا تعنيهم في شيء ولن يتوقفوا أمامها طويلاً ليستشيروا عقولهم أما معك فأعتقد أن الأمر يختلف. أخبروني بذلك عن العرب. انهم قوم كرماء ذوو أخلاق ويحترمون آدمية الانسان، ولا يعتدون على السيدات الضعفاء، ولهذا فأنا أثق بك.

أحس « ماجد » بكلماتها تصل إلى قلبه مباشرة كان بوسعه قتلها والحصول على الميكروفيلم وفي مجال عمله يعتبر ذلك عملاً عادياً.. بل وربما ينال من يقوم به ترقية أو مكافأة أو حتى ميدالية

إذا ما عاد بالميكروفيلم، ولكنه أبداً ما كان يستطيع ذلك بأي حال مع إمرأة.

واقتربت منه « إيمانا » هامسة بقلق وتوتّر: لم أسمع ردّك

وقبل أن ينطق « ماجد » وصل إلى أذنيه صوت حركة خفيفة في الحديقة، فقفز بخفّة إلى جوار الباب، وما كاد الباب ينفتح ويبرز منه يد قابضة على مسدّس حتى هبط ذراع « ماجد » بضربة قوية أطاح بالمسدّس وسدّد بقبضته لكمة إلى وجه المهاجم ألقته خارجاً.

ودوت عدّة طلقات كاتمة للصوت شقّت الباب فصرخ « ماجد » في « إيمانا »: احتمي في أي شيء، إن هناك عدداً من المهاجمين

هتفت « إيمانا » بذعر: من هم؟

رد « ماجد » وهو يحشو مسدّسه بالرصاص: لا أدري إلى أي جهة ينتمون. ولكن من المؤكّد أنهم قد عرفوا أن الميكروفيلم معك وقد جاءوا للحصول عليه.

انهارت « إيمانا » وانفجرت باكية وهي تقول: لا فائدة.. سوف أموت هنا.. لن أستطيع مغادرة هذه البلاد أبداً.

أمسك « ماجد » بمعصمها بقوة وقال وهو يحدّق في عينيها: منذ الآن يجب أن تثقي بي.. إما أن نغادر هذه البلاد سوياً.. وإما أن نموت معاً.

سرت الصمأنسة في ملامح نحمة الباليه الروسية، وظهرت في عينيها نظرة شكر عميقة وهي تحدّق في « ماجد » وتتفرّس في ملامحه، وفجأة اقتحم أحد المهاجمين باب الشقة وصرخت « بفانا » ذعراً ولكن رصاصة انطلقت من مسدّس « ماجد » ألقت الرجل طريحاً فوق المدخل.

همس « ماجد » في أذنها . لا تتحرّكي من مكانك سأعود حالاً

وأسرع إلى الجهة الخلفية من الشقة وتسلّل عبر شباك المطبخ إلى الحديقة كان الظلام يسيطر على المكان فتسلّل محتمياً بأشجار الحديقة وشاهد شبحاً يقترب متلصصاً، وبضربة واحدة مكتومة ألقاه على الأرض

وكان هناك شبح آخر على البعد، وطلقة محكمة من مسدّس « ماجد » ترنّح الشبح، ثم تهاوى قتيلاً بصوت مكتوم.

ولم يعد هناك مهاجمون آخرون وبحثَ « ماجد » يفتّش أحد القتلى فوجد بداخل جيوبه بطاقة شخصية تابع لمخابرات الأعداء.

أسرع « ماجد » يحمل القتلى الثلاثة في الحديقة ويخفيهم داخل قبو منزل « يفانا » التي سألته بذعر عما ينوي أن يفعل

رد « ماجد » وهو يعيد ترتيب المكان يجب أن تتركي المكان نظيفاً هنا حتى لا يشك أحد بك . إن هؤلاء المهاجمين لحسن الحظ ليسوا تابعين للمخابرات الروسية وهذا يدل

على أن المطاردة الحقيقية سوف تتأجل قليلاً لأن الجنرال «باشكو» ورجاله لم يعلموا شيئاً عنه بعد.

وأكمل مهمته ودفع حارساً فلحق به «يفان»، واندس الاثنان داخل سيارة «إيفان»، وأدار «ماجد» مفتاح السيارة فسألته نجمة أسئلة قلق بالغ: أين نحن ذاهبان؟

رد ماجد: إلى محطة القطارات. ما هو أقرب موعد للقطار المتجه إلى «لينينجراد»؟

ألقت «بعانا» نظرة قلقة على ساعتها وقالت: بعد نصف ساعة بالضبط.

ضغط «ماجد» فوق دواسة البنزين وهو يقول: أرجو أن نلحق به. إنه أملنا الوحيد فلست أشك أن الروس سيكتشفون حقيقتي خلال وقت قصير وسيصبح هربنا أمراً مستحيلاً بعدها.

واندفعت السيارة تشق طريقها فوق الجليد وقد بدأت أولى خيوط الفجر تبدو في الأفق.

وغمغمت «بعانا» متسائلة: هل سيسمحون لنا بمغادرة العاصمة؟

ماجد: إنهم يجهلون فراري حتى الآن وسيساعدنا هذا كثيراً

وفجأة لمع أمامهم حاجز من الأضواء الكاشفة والسيارات تسد

الطريق، وكان هناك العشرات من رجال الشرطة والحرس السرّي وقد احاطوا بالطريق وأشاروا إلى سيارة « ماجد » بالوقوف.

هتف « ماجد » مرتعجاً وهو يضغط فوق الفرامل : يبدو أني كنت مسرفاً في التفاؤل . لقد اكتشفوا هربي فأقاموا المتاريس والحواجز لمحاولة القبض عليّ

وما إن توقفت السيارة حتى أحاط بها عشرات من رجال الشرطة وقد صوّبوا مسدّساتهم نحو راكبيها

٥ ٥

« الهروب الى لينتجراد »

أحس « ماجد » نفسه يسقط بين قدميه، كان في موقف حرج دقيق، فبعد أن حصل على الميكروفيلم ها هو كل شيء يوشك أن يضيع في لحظة واحدة إذا انكشف أمره . وهو الشيء المؤكّد في هذه اللحظة.

وفتح احد الضباط باب السيارة ملوّحاً بمسدّسه وهو يتحدّث في غضب باللغة الروسية، وفجأة اندفعت « ايفانا » تتحدّث مع الضابط بلهجة غاضبة، وعلا صوتها وشوّحت بيدها والضابط يستمع إليها بوجه شاحب قلق.. وعندما حاول الضابط محادثتها علا صوتها وزادت عصبيتها وهي تتحدّث في عصب شديد.. وظهر التردّد على وجه الضابط ثم تراجع إلى الخلف، ومرت ثانية ظنّها « ماجد » دهراً كاملاً . وبدا على الضابط التردّد لحظة، ثم أشار إلى رجاله فأفسحوا الطريق، وأشار الضابط إلى سيارة « ماجد » بالمرور، ولم يصدّق « ماجد » نفسه وانطلق بالسيارة



وارتسمت ابتسامة فوق شفتي « إيمان » وتزحزحت في مقعدها، وهتف بها ماجد: لست أدري كيف أمكنك تخطيط مرورنا. إن هذا يبدو عملاً مستحيلاً.

ردت باسمة: إنهم لا يبحثون عني. وليس هناك من لا يعرف « بقايا المتوحشين » في « روسيا ». وعندما هددت هذا الضابط بأن أشكوه لرؤسائه معاملته الوقحة واعتراضه سيارة الحكومة « السوفيتية » التي تريد أن تلحق بفرقتها في محطة القصر، فقد أبدى ارتباكه وخشي من تعنيف رؤسائه ومن العقاب بالنقل إلى أقصى البلاد مصاحبة بخدمة التالية الأولى، وها أنت ترى أننا أحرار مرة أخرى.

قال « ماجد » باسماً: إن للشهرة مزاياها في هذه البلاد أيضاً.

قطبت « إيمان » جبينها لحظة وقالت: إن سفرنا بالقطار إلى « ستالينجراد » سيستغرق نصف يوم على الأقل، ولا شك أنهم سيكتشفون حقيقتنا خلال هذا الوقت، وسيكون أول ما يبحثون فيه هو القطار المتجه إلى « ستالينجراد ».

هز « ماجد » كتفيه قائلاً: هل لديك اقتراح آخر؟

ظهرت الحيرة على « إيمان » وغرقت في الصمت. فأي خطة هرب يمكن أن تقترحها رقيقة ناعمة لم تجرب الهرب في عمرها أبداً؟

توقف « ماجد » بالسيارة أمام محطة القطار، وهتفت « إيمانا » به بصوت خفيض. انتظرني هنا سأبتاع تذكرتين

ماجد. لا حاجة بك إلى تذكرتين، فأنا لست محتاجاً إلى تذكرة للسفر.

تساءلت بحيرة: وكيف ستسافر إذن؟

رد « ماجد » بغموض إن لرجال المخابرات طرقاً عديدة في توفير مصاريف السفر.. لا تشغلي بالك بي

تساءلت مرة أخرى بغموض ألن ترافقني في مقصورتي بالقطار؟

ضاق حاجبي « ماجد » وهو يقول سيكون هذا ضرباً من البلاهة. إنهم يبحثون عني لا عنك، وإذا ما أمسكوا بي معك فستكون نهايتنا سوياً أما إذا قبضوا عليّ وحدي فسيمكنك مغادرة البلاد إذا ما أغلقت فمي عن أي ذكر لك. أشترط أن تعديني بأن يصل الميكروفيلم إلى حكومة بلادي في النهاية

تمتمت « إيمانا » بصوت متأثر والدموع في مقلتيها الجميلتين: إنني أعدك.

نطق « ماجد » بإخلاص. وأنا أعدك ألا أفتح فمي بكلمة واحدة عنك في حالة إلقاء القبض عليّ. إن ما يهمني هو وصول الميكروفيلم إلى بلادي.

وكمل وهو يحدّق في عينيها وحروحت سانمة من هده البلاد

أجهشت « إيمانا » باكية. وربت « ماجد » عليها مهوّناً فتمالكت نفسها. وغادرت السيارة وقد استعادت رباطة جأشها. وعادت بعد دقائق وهمست لماجد انني في العربة الثامنة بالمقصورة العاشرة أين ستكون أنت بالقطار؟

رد بثقة قلت لك لا تشغلي بالك بي تأكدي أننا سنكون داخل القصر معاً. انه لن يستطيع أن يقلع بدوني!

قالت « إيمانا » بقلق: لم يعد هناك سوى خمس دقائق على قيام القطار.. إنني ذاهبة.

وغابت عن عينيه. وفي لحظات كان « ماجد » يغادر السيارة ويختفي داخل المحطة الواسعة بعيداً عن رقابة العيون المبثوثة في كل مكان.

° ° °

اطلق القطار صفارته الأخيرة. وضغط السائق فوق أجهزة تسيير القطار فبدأ في التحرّك بمهل..

كان من العجيب للسائق أن مساعده لم يظهر حتى تلك اللحظة.. فقد أرسله لإحضار زجاجة « فودكا » من أحد المحال داخل المحطة ولم يعد الغبي حتى تلك اللحظة، والقطار لا يمكن أن ينتظر أحداً

في «موسكو» وخاصة أن تأخير نصف دقيقة قد يعني فصله من عمله، فالنظام شيء مقدّس في تلك البلاد.

وفكّر السائق في أنه إذا ما ضبطت الشرطة مساعده ومعه زجاجة الفودكا فإنه سيبرأ من الأمر وسيقول إن الزجاجة كانت للمساعد وليس له. وهو — السائق — لن يموت على أي حال لو لم يشرب الفودكا تلك المرة. إنها قد تُنسيه طول الطريق، ولكن إذا تم ضبطه وهو يشرب داخل القطار فربما يقضي سنوات في السجن، حيث لن يجد ما يحتسيه سوى كوب الشاي المحروسة!

زحف بيديه بذلك الحصر، وجفّف حبة عرق سالت على جبهته رغم الجو القارس البرودة، ومضى القطار كأنما شرع يلتهم الطريق الحديدي الذي يشق بطن الجليد كثعبان لا نهاية لامتداده واستقامته.

فُتح الباب المؤدّي إلى حجرة القيادة، وتنفّس السائق الصعداء وهو يقول لنفسه: ها هو الغبي قد عاد أخيراً ومعه الفودكا، سوف يصير كل شيء رائعاً ككل مرة.

فتح السائق الباب وهو يهم بالسباب نحو مساعده فأدهشه الوجه القمحي المليء بالشحم والذي كان يرتدي ملابس المساعد، ومدّ صاحب الوجه القمحي زجاجة الفودكا للسائق، وقبل أن يهم السائق بإلقاء الأسئلة الحائرة التي طفت في عقله أقنعته زجاجة الفودكا ألا يفعل، عندما تحطّمت فوق رأسه فأخرسته بطريقة مؤثرة!

أزاح «ماجد» السائق جانباً وأرقده فوق الأرضية اللامعة ووضع بجواره زجاجة فودكا فارغة وجدها بأحد الأركان. وكان هذا المنظر كفيلاً بأن يجعل من يراه يظن أن السائق شرب الفودكا حتى فقد صوابه!

وعلى الفور حلّ «ماجد» مكان السائق، شأن أي مساعد سائق قطار مخلص لم يشأ أن يحدث رئيسه الذي غرق في النوم، فشرع في تمام العمل وحده كأحسن ما يكون المساعد الكفء!

توقّف القطار في أول محطة بمدينة «كالين» بعد ثلاث ساعات. كان كل شيء يجري في هدوء، حركة صعود وهبوط الركاب عادية. وأطلق «ماجد» صفارة قيام القطار الأخيرة، ثم شرع في إدارة أجهزة تسيير القطار عندما لمعت اللمبات حمراء أمامه في مقدّمة القاطرة. وكان هذا يعني أمراً بالتوقف من السلطات.

وأدرك «ماجد» أن هناك ما يريب، وأن القطار سيخضع للتفتيش. وكان بقاؤه في مقصورة القيادة خطراً، فسوف يكتشف أول من يحاوره محدثه أنه يجهل الروسية. ولعل مساعد السائق الذي تركه «ماجد» داخل دورة المياه في محطة «موسكو» فاقد الوعي، واستولى منه على ملابسه وزجاجة الفودكا قد استعاد وعيه وأبلغ السلطات بالقصة كاملة.

على الفور خلع «ماجد» ملابس المساعد وأسرع يغادر حجرة القيادة إلى رصيف المحطة، وشاهد هناك رجال الشرطة وهم يتجهون إلى حجرة القيادة فتأكد من صحة ظنونه. ولحسن حظه شاهد «إيمانا» واقفة على الرصيف فأشار إليها إشارة خفية أن تلحق به في بوفيه المحطة.

همست «إيمانا» لـ«ماجد» متسائلة: ماذا حدث؟

رد «ماجد» بصوت خفيض: يبدو أنهم اكتشفوا الأمر بطريقة ما. يجب أن نغادر المحطة فورًا. وأرخى قبعته فوق وجهه، وتأبط ذراع نجمة السينما التي راحت تحيّي معجبيها الذين أحاطوا بها في شبه مظاهرة، فتمكّن «ماجد» من الخروج معها دون أن يرتاب أحد فيهما بفضل ابتسامات «إيمانا» الساحرة التي راحت تلقيها على رجال الشرطة هنا وهناك.

وانطلق الاثنان عبر الحقول الواسعة التي غطّاها الجليد، وتساءلت بحيرة: أين نحن ذاهبان؟

تطلّع «ماجد» حوله بحيرة وقال: لا أدري.

ولمع على البعد مبنى عريض يشبه المطار وطائرة صغيرة مروحية تقلع منه فتألقت عينا «ماجد» وهتف بانفعال: يبدو أننا حسنو الحظ.. هيا بنا.

وأسرع الاثنان يعدوان نحو سور المطار.. وكان هناك حارس

قريب بمدفع « كلاشنكوف » سريع الطلقات اقترب منهما مرتاباً وما إن وقع بصره على « إيفانا » حتى حدّق فيها بدهشة وخفض مدفعه ونطق بشيء ما باللغة الروسية عندما تعرّف على « إيفانا » فحيّته « إيفانا » بابتسامة عريضة فغمر الحارس سعادة غامرة لا يصدّق عينيه بمشاهدة نجمه الثانية في ذلك المكان المقفر وكان هذا هو آخر ما فعله الحارس فوق كوكب الأرض ثم حلّق بعدها في الملكوت السبع، إذ رشقته ضربة « ماجد » العنيفة في بطنه إليها، مما كان لا يُنتظر هبوطه منها إلى الأرض مرة أخرى قبل ساعات!

تجاوز الاثنان الأسوار بسرعة، واقترب « ماجد » من طائرة صغيرة مروحية ذات مقعدين من طراز « راكون » القديمة والتي كانت مستعملة في الحرب العالمية الأولى، وهتف « ماجد » وهو يركب الطائرة : هيا يا « إيفانا ».

ترددت « إيفانا » وهي تتعلق في الطائرة وقالت بقلق . أتظن أن هذه الطائرة آمنة؟

رد بلا مبالاة : سنكتشف ذلك حالما نطير بها

وأقنعها باسماً قبل أن تحتج ليس أمامنا فرصة أخرى فلا توجد طائرات « جامبو » في هذا المطار كما أننا لم نخبر المسئولين هنا مسبقاً بسفرنا حتى يحجزوا لنا مقعدين في

مقصورة فاخرة بطائرة الخطوط السوفيتية، وهكذا ترين أننا لا نستطيع أن نثق بأحد إلا أنفسنا!

التفتت « إيمان » إلى « ماجد » باسمة، وحسمت ترددها وصعدت الطائرة، وأدار « ماجد » محركها الوحيد وشرع يدرج بها فوق المطار ثم ارتفع بها إلى الفضاء.

ومن أسفل تعالى صياح وجلبة بعض الحاضرين في المطار، وشرع أحدهم على الفور بنقل رسالة بما حدث إلى المسئولين.

تساءلت « إيمان » بقلق والطائرة تشق السحاب: كم سيستغرق وصولنا إلى « ليننجراد »؟

رد ماجد: ليس أقل من ساعة، إنها طائرة بطيئة كما ترى، كانت تستخدم لنقل معدات الحدائق، وربما كانوا يستخدمونها في نقل الأسمدة إلى أن اجتاحت الأمطار!

غمغمت إيمان: المهم أن نصل سالمين.

وتلفتت حولها بقلق وهي تتساءل: أين توجد مظلات النجاة؟

رد ماجد: لا أعتقد أنهم كانوا قد اخترعوها بعد، عندما اخترعوا هذه الطائرة!

هتفت بذعر: وماذا ستفعل إذا ما أصيبت هذه الطائرة بعطب ما؟

وأجابها ماجد: أولى بك أن توجهي هذا السؤال إلى من اخترع هذه الطائرة وليس لي!

حدّقت « يمانا » في « ماجد » بذعر حقيقي، ثم انكمشت في مقعدها بصمت وحزن وعيناها معلقتان بالفضاء في الخارج، وراحت الطائرة تترنح وتهتز في طيرانها كأنها تقفز فوق مطبّات وهمية

وفجأة هتفت في ذعر وأصبعها يرتعد وهي تشير جهة الشرق: انظر.

التفت « ماجد » بسرعة فبدت له على البعد ثلاث طائرات مقاتلة سريعة من طراز « ميج ٢١ ».

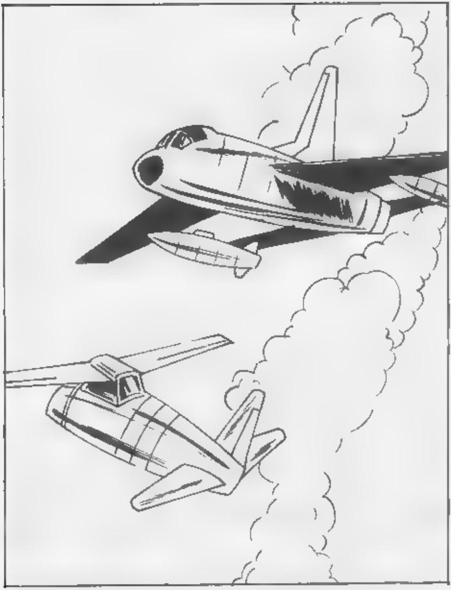
قطب « ماجد » جبينه قائلاً: أعتقد أنهم جاءوا في أثرنا.

صرخت « يمانا » في رعب: هل سيطلقون علينا الرصاص؟

ماجد: لا أظن. إن طائرات « ميج ٢١ » لا تطلق إلا الصواريخ!

ولم يكد يتم عبارته حتى انطلقت ثلاثة صواريخ من الطائرات الثلاث المهاجمة، وصرخت « ايمانا » في فزع لا حد له كطفلة ترى شبحاً يخرج إليها من الظلام. وعلى الفور انحرف « ماجد » بطائرته « الداكوتا » لأعلى فتحاشى الصواريخ الثلاثة التي ارتطمت بالأرض وانفجرت بصوت مدوّي..

واستدارت الطائرات الثلاثة وعاودت هجومها من الخلف وهي



تضيّق الخناق على الطائرة « الداكوتا » الصغيرة البطيئة في شكل نصف دائرة، وبدت « الداكوتا » أمامها كيمامة فزعة هاربة توشك ثلاثة من النسور على الانقضاض عليها وافتراسها.

وحالما انطلقت الصواريخ من طائرات « الميج » اندفع « ماجد » هابطاً بطائرته لأسفل بسرعة بالغة بحركة بهلوانية حتى أن « ايمانا » انكفأت على وجهها. ونجح « ماجد » في الافلات من الصواريخ الثلاثة. ولكن احدى الطائرات شرعت في مناورة ماهرة خلف « الداكوتا » وأطلق قائدها صاروخاً آخر. وأدرك « ماجد » الخطر المحدق به فمال بالطائرة الصغيرة في حركة بهلوانية بالغة الخطورة، وانحرف الصاروخ في آخر لحظة ومسّ جناح الطائرة الأيسر وحطّمه.

صرخت « ايمانا » برعب وهي تشاهد الجناح المحترق : إن الطائرة.. سوف تنفجر ونموت.

وبالفعل فقدت الطائرة توازنها وشرعت في الانحدار نحو الأرض بسرعة بالغة والدخان يتصاعد منها في شكل ذيل طويل.

ولم تلبث الطائرات « الميج » الثلاثة أن مرقت في السماء عائدة إلى ثكناتها ، بعد أن قامت بمهمتها خير قيام!

* * *

« العبور.. بطريقة الطيور المهاجرة »!

صرخت « إيمان » في ذعر هائل وأخفت وجهها والطائرة تندفع نحو رؤوس الأشجار بقوة، وكان الاصطدام بها مؤكداً، خاصة وقد فقد « ماجد » السيطرة على الطائرة المحترقة المترنحة تماماً

وبذل « ماجد » محاولة أخيرة فدفع بذراع المناورة إلى أقصى جهة اليسار ، وترنحت الطائرة لحظة ومالت جهة اليمين بزاوية حادة تنجو من الاصطدام بالأشجار ولكنها اندفعت نحو الأرض بقوة، ودفع « ماجد » عجلة القيادة للخلف بقوة فاعتدلت مقدمة الطائرة ومست الأرض مساً خفيفاً واندفعت تجري فوق الجليد القاسي الذي كان أشبه بالمرآة المصقولة، ثم اصطدمت بنتوء جليدي أطاح بالجناح الأيمن فنثره إلى أشلاء . وتوقفت الطائرة في مكانها لشدة الضربة بعد أن دارت حول نفسها دورة عنيفة حطمت ذيلها ثم انغرزت عجلاتها وسط الجليد.

كانت « إيمان » لا تزال تبكي وتنتحب وجسدها ينتفض رعباً

ومن المؤسف أنه فاتها أن تشهد ذلك الهبوط المثير الرائع الذي كُلِّل بالنجاح وانتهى بالطائرة راقدة فوق الجليد بلا جناحين أو ذيل.

لمس «ماجد» كتف «إيمانا» برقة وهو يقول: لقد هبطنا يا سيدتي. ومن المؤسف أنهم لم يعلموا بوصولنا وإلاّ كان هنالك وفد رسمي لاستقبالنا بأطواق الورود!

تطلّعت «إيمان» حولها بدهشة بالغة فطالعها الجليد والغابات حولها فاتّسعت عيناها غير مصدّقة وصرخت بفرحة طاغية: لقد نجونا. لقد نجونا يا إلهي. إنك بارع. أشد الناس الذين قابلتهم في حياتي براعة وشجاعة.

واندفعت نحو «ماجد» تطوّقه بشدّة ودموعها منهمرة بقوة فربت عليها قائلاً: لا يزال أمامنا الكثير، وفّري دموعك فقد نحتاجها في موقف آخر يتطلّب البكاء!

وغادر الاثنان مقعديهما، وتعاونا في دفع الطائرة نحو الغابات الكثيفة لإخفائها، وتطلّعت «إيمانا» حولها وأشارت إلى نقطة في الشمال قائلة بانتصار: «ستجراد» إنها على مسافة أقل من ثلاثة كيلومترات.

تساءل «ماجد» مدهشاً: أأنت واثقة؟

ردت بثقة وعيناها تتألّقان: كيف لا أكون واثقة وقد ولدت في

هذه المدينة العظيمة، لقد قضيت أغلب طفولتي في هذا المكان.. هيا بنا.

وراح الاثنان يسيران فوق الجليد وهما يجاهدان لإتزان أنفسهما، وبعد وقت اقتربا من مشارف المدينة ثم تجاوزاها إلى الداخل

وبدأ الثلج يسقط فوقهما فأحدث « إيمان » ترتجف بشدة، كان الجو بارداً، قارس البرودة، وقد تدنّت الحرارة لأكثر من خمسة وعشرين درجة تحت الصفر

همست « إيمان » وهي ترتعد : إنني أكاد أتجمّد

خلع « ماجد » سترته وغطّى بها رفيقته فنظرت إليه بشكر عميق وتطلّعت إلى قميصه الخفيف فوق جسده وقال باسماً : لا عليك لقد درّبونا على درجة برودة أكثر من هذه

غمغمت وهي تضغط فوق يديه برفق : إنك لم تخيّب ظن من أرسلك إلى هنا.. ولا أظنك خيّبت ظن أي إنسان اعتمد عليك من قبل ووضع ثقته فيك.

— هذا صحيح تماماً يا سيدتي.. وهم عادة يرسلونني إلى المهام التي لا يريدون مني أن أخيّب ظنهم فيها أبداً، والتي لا يتوقّع أن ينجح في أدائها شخص آخر.

وشرعا يخترقان طرقات المدينة الهادئة الواسعة، وقادت « إيمان »

« ماجد » إلى منزل قريب وقالت له . إن لدينا صديقاً هنا.

وطرقت باب المنزل، ففتحته سيدة عجوز. وما أن شاهدت « إيفانا » حتى اندفعت تحتضنها بشدّة وهي تبكي وتتحدّث بالروسية بسرعة. وسرعان ما شملهما المكان الدافئ وأسرعت العجوز تضع أمامهما الطعام والشوربة الساخنة قالت « إيفانا » « ماجد » باسمة إنها والدتي بالتبنّي. إنها واحدة من القلائل الذين يعرفون سر مولدي وهي تعيش هنا وحيدة بعد وفاة زوجها أبي بالتبني

تساءل « ماجد » بشيء من القلق ألا تخشين أن تشي بنا و .

فقاطعته « إيفانا » وهي تنظر الى المرأة العجوز ذات الوجه الطيب : إنك لا تعرفها.. إنها تحبّني كما لو كنت ابنتها . لقد كانت هذه المرأة هي همزة الوصل بيني وبين أخي كل هذه السنين. تأتيها رسائله فتحملها إليّ في « موسكو » متحمّلة مشاق الطريق. إني أحبها كما لو كانت أمي تماماً.

ومرت لحظات من الصمت وأغمضت « إيفانا » عينيها بإرهاق فربت « ماجد » فوق كتفيها برفق وقال لها لم يحن أوان الراحة بعد يا عزيزتي.. لا يزال أمامنا سفر شاق.

تطلّعت نحوه بقلق وتساءلت أتنوي مغادرة البلاد الآن؟

— نعم.

— كيف.. إنهم على الحدود لا يسمحون بمرور قطة صغيرة. سوف يطلقون عليه الرصاص إذا ضبطوه

ابتسم « ماجد » وهو يقول: سوف نغادر البلاد بطريقة لا تخطر على بال أحد.. إني دائماً أحب الطرق المبتكرة

تساءلت بدهشة: كيف؟

ضغط « ماجد » على يديها وهو يقول: ليس هذا وقت لأسئلة.. أين توجد محطة الأرصاد الجوية في هذه المدينة

— إنها على مشارف المدينة.. لماذا؟

— نرتدي كل ما يمكننا ارتداؤه من ملابس ثقيلة فهيا بنا فإن بقاءنا هنا خطر علينا.. فسوف يعثرون على طائرتي في القريب وسيكتشفون مخبأنا ومن ثم سيقلبون هذه المدينة رأساً على عقب بحثاً عنا

نهضت « إيمانا » بصمت وعانقت مربيتها العجوز، وارتدت سترتين صوفيتين تخصّان المرأة العجوز تحت معطفها الثقيل، وغطّى « ماجد » كتفيه بوشاح صوفي ثقيل وارتدى معطفاً ثقيلاً فوقه وخلعت « إيمانا » من إصبعها خاتماً ثميناً بفص ماسيّ دسّته في يد المرأة العجوز لتعوّضها عما أخذاه من ملابس لا تملك غيرها، ولم تتمالك نفسها وهي تحتضنها لآخر مرة في حياتها فأجهشت في البكاء بشدّة.. وتلقّفهما الطريق مرة أخرى فسارا في صمت

نحو محطة الأرصاد الجوية. وبعد ساعة كانا يدنوان من أسوارها

لم يكن هناك أي نوع من الحراسة وتسلل الشابان عبر أسوار المحطة التي كانت تشغل مساحة متسعة من الأرض تحيط بها سياج حديدي وتناثرت الأبنية الخفيفة بداخلها

وكانت هناك أبراج ضخمة عالية وعدد من بالونات قياس سرعة الرياح واتجاهها في صفحة الجو تعبث وكانت البالونات متوسطة لا يزيد قطر الواحدة منها عن مترين وقد رُبطت إلى قواعد حديدية مثبتة في الأرض بحبال قوية.

تلفّت «محمد» حوله فوقع بصره على سلّة كبيرة من الخوص القوي تتسع لشخصين فظهر السرور على وجهه، وبسرعة أحضرها وأتى بحبال قوية شدّها في السلّة ثم ربط طرفها الآخر في ست بالونات.

تساءلت «نجلاء» دهشة: ماذا تنوي أن تفعل؟

رد «محمد» باسمًا: كما ترين سوف نطير كما تفعل الطيور المهاجرة، ولست أشك بعدها أن الجنرال «باتشكو» سيمنع عبور الطيور المهاجرة فوق البلاد إلا بتصريح شخصي منه!

هتفت «نجلاء» بفرح: أتريدني أن أركب هذا الشيء وأطير به فوق الحدود؟

— ليس هناك من وسيلة أخرى . والريح مواتية الآن فهي تهب في الاتّجاه الصحيح وسوف تدفعنا نحو خليج « فلندا » بسرعة مناسبة.

ساءلت « ايفانا » بذعر : ألن يرصدونا فوق راداراتهم؟

— لحسن الحظ فان الذي صنع الرادار لم يضع خطة هروبنا في حسبانه فاكتفى بأن جعله يرصد الطائرات فقط.

وتقدّم نحو السلة فتبعته « ايفانا » بعد تردد قصير.. لقد تعلّمت أن تثق فيه.

إلتفت « ماجد » الى « ايفانا » باسماً وهو يقول : من المؤسف انهم لم يضعوا في هذه السلة أحزمة ليربطها الركاب عند الاقلاع، فأرجو أن تتشبّثي جيداً بمكانك فإن اقلاعنا سيبدو خشناً قليلاً.

تشبّثت « ايفانا » « بماجد » الذي بدا أمامها رجلاً لا يعرف المستحيل ولا يعرف الخوف أو التردد قلبه أبداً وقطع « ماجد » الحبال التي تربط البالونات السلة بقواعدها الحديدية بمدية أخرجها من جيبه، ومع آخر حبل انقطع اهتزّت السلّة بشدّة ثم اندفعت لأعلى والبالونات تحملها صاعدة إلى طبقات الجو العليا الباردة

وأخذت الأرض تبعد وتبعد وهما يعلوان وأخيراً استقرّت البالونات على ارتفاع يزيد عن خمسة آلاف متر، وأخذت الرياح

تدفعها نحو الشمال الشرقي، وألقى « ماجد » نظرة إلى ساعته وحسب سرعة الرياح وقال . سنبلغ الحدود الصينية خلال ثلاث ساعات. هذا إذا لم تغيّر الرياح اتجاهها وسرعتها وظل حُسن الحظ حليفنا.

اتسعت عينا « إيمان » بذعر لا حد له عندما طاف في ذهنها خاطر مفاجئ وهتفت في ماجد ولكن كيف سنهبط إلى الأرض مرة أخرى؟

هز « ماجد » كتفيه وهو يقول إن من اخترع هذه البالونات لم يهتم بكيفية هبوطها، فهي عادة بعد أن تؤدي مهمّتها تدفعها الرياح إلى القطب الشمالي.. حيث تُدفن هناك إلى الأبد!

هتفت « إيمان » بذهلة القطب الشمالي؟ يا إلهي. أي مصير ينتظرنا هناك؟

لم يرد « ماجد » واسترخى في السلة الكبيرة تاركاً للرياح والأقدار مهمة توجيه البالونات.

وانكمشت « إيمان » وقد التفّت بمعطفها الثقيل وهي تعاني من البرد الشديد.

وأغمض « ماجد » عينيه كأنه قد غرق في النوم وبعد قليل غرقت « إيمان » في النوم أيضاً برغم البرودة القارسة.

ومضى الوقت وفتح « ماجد » عينيه وألقى نظرة لأسفل. لم يعد

للجميع أي أثر بأسفل، وظهرت الأرض فتألقت ملامحه بعلامات سرور وأيقظ «إيفانا» برفق وقال لها باسماً: لقد عبرت الحدود بلا مشاكل. نحن الآن فوق الأراضي الفنلندية

هتفت «إيفانا» بفرحة طاغية، وفجأة اندفعت نحوهما طائرة شرعية على مسافة قريبة مكّنت «ماجد» من أن يشاهد علامات الذهول الطاغية التي ترتسم فوق وجه الطيار الشاب الذي هزّ رأسه بشدّة كأنه لا يصدّق ما يراه. ثم أسرع إلى جهاز اللاسلكي الصغير وراح يتحدّث فيه بصوت لاهث وهو يشير بيده إشارات مذعورة عصبية نحو البالونات الست التي تحمل سفينة «ماجد» و«إيفانا» فلوّح له «ماجد» باسماً ثم التفت قائلاً لرفيقته:

يبدو أننا سنواجه ترحيباً رسمياً عند هبوطنا، ولست أشك أن نصف قوات البوليس والجيش الفنلندي سيكونون بانتظارنا عند الهبوط. فالجميع هنا غير معتادين على استخدام البالونات في السفر وعبور الحدود، رغم أنها وسيلة رخيصة ولا تتطلب جواز سفر، كما أن أحداً لن يطلب منك الامتناع عن التدخين فيها!

تساءلت «إيفانا» بمرح: وماذا سنقول لهم لو علموا بالحقيقة فسوف يعيدوننا إلى..

قاطعها «ماجد» باسماً في ثقة: ومن سيخبرهم بالحقيقة. إن الروس لن يعترفوا أبداً أننا خدعناهم وغادرنا البلاد بهذه

الصورة، كما لا أظن أن السلطات الهندية ستعيدنا إلى هناك ما دمنا لن نصرح لهم بشيء، إننا لن نعود أبداً إلى داخل الستار الحديدي.

تساءلت «إيمانا» بعمق: وبماذا سنبرر للمسئولين هنا دخولنا البلاد بمثل هذه الطريقة؟

زم «ماجد» شفتيه كأنه يفكر بعمق ثم قال: ما رأيك في أن نخبرهم أننا كنا في القاهرة، وأردت أن أريك الأهرامات من أعلى بهذه البالونات ولكن الرياح كانت قوية قليلاً فدفعتنا إلى هذه البلاد؟

انفجرت «إيمانا» ضاحكة وهي تقول: إنها فكرة رائعة. ترى كيف سيبدو شكل الأهرامات على ذلك الارتفاع. سوف تكون أول شيء أراه عند وصولي إلى مصر

وظهرت على البعد عدة طائرات حربية هندية أحاطت بالبالون فرفع «ماجد» يديه محيّة، ثم التفت إلى «إيمانا» قائلاً: لقد حان أوان هبوطنا.

وأخرج من جيبه مديته الصغيرة وقطع حبل بالونين من البالونات الستة، فبدأت السلة ببالوناتها الباقية تهبط متأرجحة لأسفل ثم تثبت فوق ارتفاع ألفي متر وهي تندفع شمالاً. وقطع «ماجد» حبل بالون ثالث. ومع البالون الرابع راحت سلة الخوص تهبط لأسفل

سطح كأنها باراشوت. واستقرت أخيراً مراكبها داخل سياج مزرعة صغيرة قد جلس أصحابها لتناول الافطار في ذلك الوقت من الصباح.

وما إن شاهد أصحاب المزرعة ذلك الشيء الهابط العجيب داخل مزرعتهم حتى أسرعوا نحوه وأحاطوا « بماجد » و « ايمانا » وهم يتحدثون باللغة الهندية بسرعة مدهشة وهم يتحسسون « ماجد » و « ايمانا » كأنهم لا يصدقون أنهما بشر مثلهم. وقالت « ايمانا » « لماجد » بحيرة : ني لا أفهم شيئاً مما يقولون. ماذا سنقول لهم.. وماذا سنقول للمسئولين الذين سيهرعون إلى هنا بالمئات

رد « ماجد » باسماً وهو يربت فوق كتفيها : سنؤجل التفكير في ذلك لما بعد افطارنا . فهذا أول ما يجب أن نفعله. لقد كنت مشتاقاً دائماً لتذوق الزبدة الهلندية.. لا أظن أنني سأترك مثل هذه الفرصة دون اغتنامها.

واتجه إلى مائدة الطعام فتبعته « ايمان » وقد خف قلقها، وراح الاثنان يأكلان بشهية على حين حملق صاحب المزرعة وزوجته وأولاده في « ماجد » و « ايمانا » بذهول كأنهما يشاهدان حتى مصباح علاء الدين!

ومن بعيد تعالت أصوات سيارات الشرطة صاخبة عالية، مما ينذر بوصول رتل منها لا يقل عن العشرات، وتبعتها اصوات هادرة لدبابات ثقيلة!

واندفع رجال الشرطة بالمئات وعشرات المسئولين داخل المزرعة فلوّح لهم « ماجد » قائلاً. مرحباً أيها السادة. لماذا لا تأتون وتشاركوننا افطارنا؟

وبرز وجه السيد « م » من وسط عشرات المسئولين باسماً واثقاً، وغمز له « ماجد » بعينيه والتفت إلى « ايفانا » قائلاً: لقد صار

كل شيء على ما يرام لقد كانت عيون السيد « م » تتبعنا في كل مكان وحتى لحظة هبوطنا، وقد جاء في الوقت المناسب ليعفينا عن الردود على الأسئلة المحرجة.

تساءلت « ايفانا » بدهشة ومن هو السيد « م »؟

رفع « ماجد » حاجبيه بدهشة قائلاً. ألم أخبرك من هو السيد « م »

يا لي من مقصّر ربما أخبرك عنه يوماً ما بعد خمسين عاماً.. والآن ما رأيك في الزبدة المثلجة، أليست لذيذة حقاً، اني أفكّر في شراء عدة ارطال لأهديها إلى جدّتي فقد وعدتها بهدية صغيرة عند عودتي، مع أطيب تمنياتي من بلاد الثلج والجليد.

ولكن، كانت هناك مفاجأة أخيرة « لماجد »، عندما شاهد الجنرال « باشكو » يتقدّم متأبّطاً ذراع السيد « م » رئيسه، والاثنان يبتسمان في سرور واعجاب.

ورفع الجنرال قبعته « لماجد » محيّياً وقال: كان صراعاً

موقفاً وأظن أنهم سيدرّسون لطلبتنا تلك الوسيلة المبتكرة في الهروب من المآزق.. وربما يرغب رجالي في أن تتعاون معهم يوماً ما، فإن الرجال الأفذاذ قلائل في هذا العالم.

وهنا فقط أدرك « ماجد » أن خروجه سالماً من « روسيا » كان بتدخّل من الجنرال « بانشنكو » شخصياً، وان كل شيء كان يجري تحت سمعه وبصره، وان هناك صفقة قد تمّت بينه وبين السيد « م » لخروج « ماجد » حياً من البلاد، وربما لولا ذلك ما ذاق « ماجد » الزبدة الفنلندية أبداً!!

هذه العملية :

الهروب المثير

ككل مرة ينجو « ماجد » من الموت بطريقة مبتكرة.. ولكنه لا يزال مطارداً من أقوى ثلاث أجهزة مخابرات في العالم..

وأخيراً يعثر « ماجد » على الميكروفيلم.. ولكن يضاف اليه راقصة البولشوي الشهيرة « ايفانا بافلوفا ».. والتي تشترط على « ماجد » أن يقوم باخراجها من البلاد لتعطيه الميكروفيلم.. في الوقت الذي تتحوّل فيه حدود البلاد إلى طوق حديدي يستحيل الخروج منه..

ولكن « ماجد » يحطِّم المستحيل ويغادر البلاد.. بطريقة لم تخطر على بال اعدائه.. ولم يفكّر فيها انسان من قبل.


تحيا مصر


BLUE BIRD
Scan By: M.Raafat & Rabab